المبحث الأول

****

أشكال التعبير الفني للسيرة الذاتيـة

••••••••••••

- الشـكـل المقـالي .
- الشـكـل التـأريخـي الـراصـد .
- الشـكـل الـروائـي .

obeikandl.com

obeikandl.com

١ – الشكل المقالي :-

-١-

وفيه يبنى المؤلف سيرته فى مجموعة من الفقرات (أو المقالات) وينهج عن كل فقرة من الفقرات نهج المقالة التى تقوم على التفسير والتدليل ، يقدم للفقرة كتمهيد أحياناً فى كل فقرة ، وهذه الفقرات تصوغ سيرة حياة صاحبها ، وملامح شخصيته الفكرية والوجدانية والروحية لا فى نهج من الترابط والاتساق ، ولكن فى فقرات تتجاور فيما بينها لتعكس لنا سيرة حياة صاحبها ، وفى هذا النوع من السير لا نبحث عن التسلسل فى الأحداث ، والاتساق فى البناء بالصورة المحكمة ، لأنه يغلب على صاحبها التأمل والتدليل لمواقفه من الحياة والكون فى أسلوب يشوبه التقرير لا التصوير ، والمباشرة لا الإيحاء ، وإن حاول الكاتب إيجاد رابطة فى بنيان سيرته بالتدرج فى نقل مراحل حياته المتعاقبة والحذر من التنقلات الفجائية ليكون العمل ذا وحدة متماسكة تشيع فى أجزائه كلها ، بحيث لا تقتصر هذه الوحدة على " التركيب " فحسب ، بل تشمل الروح والنغمة (١) ولكن رغم ذلك ينفلت البناء الفنى فى هذا القالب الفنى ، ليستشفها المتلقى من خلال التجاور بين هذه المقالات لا فى النسج المحكم الذى يربط العمل الفنى برمته ، وقد انتهج هذا القالب الفنى عدد كثير من الكتاب فى نسج سيرتهم الفنية ممن حذقوا فن المقالة فمنهم من صور حياته الفكرية السياسية والاجتماعية (فى سيرته) مثل لطفى السيد فى (قصة حياتى) وعبد العزيز فهمى فى (هذه حياتى) وهيكل فى (مذكرات في السياسة المصرية) ومنهم من صور حياته الذاتية لنقل عالمه الفكري مثل العقاد في (أنا – حياة قلم) وسلامة موسى فى (تربية سلامة موسى) .

---

١ - راجع : الترجمة الذاتية فى الأدب العربى الحديث د . يحيى ابراهيم عبد الدايم ص١٣

وهناك صورة أخرى لهذا القالب المقالي ، وفيه يجمع الكاتب بين مقومات المقالة فى التفسير والتدليل ، وبين طريقة الروائى التى تعتمد على التصوير للمواقف والتجارب والأماكن والمشاهد والشخصيات الفنية تصويراً يستمده من عناصر الفن الروائى مع إفادته – أيضاً – من هذا الفن بقدر من الخيال ، والحوار الدرامى الذى يربط بين أجزاء العمل الفنى ، ليتحقق فيه السرد القصصى المشوق ، مع المزاوجة بتقنيات المقالة بالتدليل والتفسير والتأمل والتدبير لحالته الفكرية والنفسية والشعورية ، ومن الذين صاغوا سيرتهم فى هذا القالب (الذى يجمع بين المقالة والفن الروائى) ميخائيل نعيمة فى (سبعون) وتوفيق الحكيم فى (سجن العمر و زهرة العمر) وعبد الله الطوخى فى (عينان على الطريق) و خالد محمد خالد فى (قصتى مع الحياة) . . الخ .

-٢-

ومن السير التى انتهجت نهج الشكل المقالي والتى سنقف عليها بالدراسة لطفى السيد فى (قصة حياتى) والتى تصور الجانب السياسى والفكرى والاجتماعي لصاحبها ، ومن السير التى تصور الجانب الفكرى (أنا) للعقاد ، وتربية سلامة موسى (لسلامة موسى) .

تصور قصة حياتى لأحمد لطفى دعوة صاحبها الفكرية والسياسية والاجتماعية والخلقية ، والتى بناها على أساس علمى فدعا إلي نهضة مصر على هذه الأسس العلمية والأخلاقية ، وشارك فى الحياة السياسية ، فأسس حزب الأمة عام ١٩٠٧ . وعين سكرتيرا عاماً له ، وترأس جريدة (الجريدة) والتى دعا فيها إلي سياسة (مصر للمصريين) مقابل الدعوة التى كانت تدعو إلي الجامعة العثمانية ، والدعوة الأخرى التى كانت تدعو إلي توحيد كلمة المسلمين ، فى دولة إسلامية تحت خلافة واحدة وقد أختار هذا الشكل

(المقالي) الذى يقوم على التدليل والتفسير والتبرير " ليكون وعاء يصب فيه ما نستدل منه على مراحل حياته المختلفة ، وعلى أطوار شخصيته فى طفولته وصباه وشبابه ، وفى مراحل نضجه العقلى الذى أتاح له الدعوة إلي أفكار جديدة " (١) .

وقد سجل لنا حياته على فترات ، لتعبر كل فترة عن مرحلة من مراحل حياته أو جزءاً من حياته من هذه المرحلة فى شكل مقالة نثرية (فى خمس عشرة مقالة) المقالة الأولى يعرض فيها لولادته يوم ١٥ يناير عام ١٨٧٢ م فى قرية برقين إحدى قري مديرية الدقهلية ، حفظ القران الكريم وهو فى سن العاشرة ، أكمل دراسته فى مدرسة المنصورة الابتدائية ، ثم التحق بالمدرسة الخديوية الثانوية ، وبعدها التحق بمدرسة الحقوق وحصل على البكالوريا عام ١٨٨٩ م ، ثم اتصل بالصحافة وكانت بداية كتاباته ، فأنشأ هو وإسماعيل صدقى وإسماعيل الحكيم مجلة التشريع ، ثم كتب فى صحيفة المؤيد (٢) ، وفى المقالة الثانية يعرض لاشتغاله بالسياسة ، بعد أن كان كاتباً فى النيابة ثم معاوناً فوكيلاً للنيابة ، فأنشأ هو وعبد العزيز فهمى جمعية سرية لتحرير مصر (٣) . وفى المقالة الثالثة يتحدث عن عمله فى الصحافة ، وإنشائه جريدة (الجريدة) وتركه للنيابة والمحاماة (٤) وفى المقالة الرابعة والخامسة ، يعرض لمواقفه من آراء كرومر ويفندها لأنه ندد فيها بطبيعة المصريين وأخلاقهم وعاداتهم ، ويدعو إلي الاستقلال التام (٥) ، وفى المقالة السادسة يرد على من اتهمه بالخروج على إجماع الأمة لرأيه السابق (٦) ، وفى المقالة السابعة يعرض لخلاصة رأيه فى أربعة رجال حسن عاصم ، ومصطفى كامل ، وقاسم أمين

١ - راجع : الترجمة الذاتية فى الأدب العربى الحديث د . يحيى ابراهيم عبد الدايم ص١٦٢
٢ - راجع : قصة حياتى لأحمد لطفى السيد القاهرة دار الهلال كتاب الهلال رقم ١٢١ سنة ١٩٦٢ ص ١٧:٣٠
٣ - راجع : م. نفسه من ص ٣١:٣٩
٤ - راجع : م. نفسه من ص ٤١ : ٤٧
٥ - راجع : م. نفسه من ص 77 : 51
٦ - راجع : م. نفسه من ص 91 : 79

وسعد زغلول [١] ، وفى المقالة الثامنة يعرض لرحلاته إلي أوروبا ، وفى المقالة التاسعة يعرض لعلاقاته بسعد زغلول وبالخديوى عباس [٢] ، ثم يعرض فى مقالته التالية لموقفه وموقف مفكرى عصره من الحرب العالمية الأولى ، ويختم ترجمته الذاتية بمقالة عن الأخلاق وكيف يُبنى عليها السلام العالمى ؟

فقد بنى لطفى السيد سيرته على مجموعة من المقالات (خمس عشرة مقالة) أطلق على كل مقالة فصلاً ، وأول ما نلاحظه على هذه السيرة التى تعتمد على أسلوب المقالة (التحليلية) ، أنها تفتقر إلي رابطة قوية تمنح البناء تماسكاً ووحدة واتساقا وإن كان قد حاول إيجاد رابطة لأحداث هذا التماسك ، عن طريق الحرص على التدرج الزمنى والتدرج فى الانتقال ، لتصوير مراحل حياته منذ الطفولة ، وتتبع مراحل تطوره تتبعاً منتظماً [٣] ، ولكن رغم افتقاد هذه السيرة الرابطة المحكمة لكنها أطلعتنا على حياة صاحبها ومواقفه السياسية والاجتماعية والفكرية ، يزيد من قيمتها الفنية تواضع صاحبها وصراحته ، فلا تجد لهجة الزهو والفخر فيعترف بأنه كان من متوسطى المستوى فى قوله " فلم أكن من المتقدمين أو المتأخرين " [٤] . وينصف عرابى الذى وصفه كثيرون بالخيانة ، فيذكر له حسنة الدستور " فالدستور المصرى من عمله ومن صنع يده ومن آثار جرأته " . . . أما الخيانة فأمر لا نعرفه فى زعماتنا المصريين " [٥] ومما يؤخذ على هذه السيرة أنها افتقدت الصراع الداخلى ، فلا نجد البعد الداخلى فى تناول مواقف وأحداث

---

١ - راجع : م. نفسه من ص 106 : 93
٢ - راجع : م. نفسه من ص 130 : 108
٣ - راجع : الترجمة الذاتية فى الأدب العربى الحديث د . يحيى ابراهيم عبد الدايم ص١٦٥ .
٤ - قصة حياتى أحمد لطفى السيد ص ٢٥ .
٥ - راجع : م. نفسه ص ١٠٤ .

حياتـه ، ولا يغـور داخـل نفسـه يستبطنها ، ليعـرى مشـاعرها وأحاسيسـها ، بـل يكتفـى بالرصد للأحداث ، دون رصده لذبذبات شعوره .

-٣-

علـى نفـس الـنهج السـابق صـاغ العقـاد سيرة حياتـه (أنـا) و(حيـاة قلـم) فـى أسلوب المقالة الذى يعتمد على التحليل والتفسير والتبرير ، لا التصوير والسرد وتجسيد الأحداث مصوراً الصراع النفسى الذى يعتمل النفس إزاء تقلبات الحياة ، وموقفه من الواقع والأحداث التى مرت به وأول ما يصدم المتلقى العنوان (أنا) بما فيه من الشموخ والتعالي والاعتزاز ، ليصور لنا حياة العقاد (السوبرمان ، الرجل الكامل) الذى لا نقيصة فيه ولا عيب ، ولا شيء يهزه ، ويزلزل كيانه ، ولا حباً لفتاة يدفعه إلي بعض التنازلات كما يحدث لغيره من بنى البشر ، إنه يكتب عن العقاد الذى يراه هو ، كما لا يراه الناس كما يقول (١) .

ويتألف كتاب (أنا) من تسعة فصول وداخل كل فصل مجموعة مقالات كالآتى الفصـل الأول (أنـا –أمـى – بلـدتى – فـى طفـولتى – ذكريـات العيـد) الفصـل الثـانى (أساتذتى – أشياء جعلتنى كاتباً – هجرت وظائف الحكومة) الفصل الثالث (قلمى – لماذا هويت القراءة ؟ – الكتب المفضلة عندى – منهجى فى كتابة المقالات – منهجى فى تأليف الكتب – مالم أكتب . . وما أريد أن أكتب) . الفصل الرابع (عرفت نفسى – عرفت طريقى للنجاح – تعلمت من أوقات الفراغ – أحرج ساعة فى حياتى – كنت شيخًا فى شبابى) . الفصل الخامس (أصدقائى وأعدائى – أصدقائى الأطفال – أنا فى السجن – خواطرى فى الصحة والمرض) . الفصل السادس (إيمانى – لو عدت طالباً – فلسفتى فى

١ - راجع : أنا لمحمود عباس العقاد كتاب الهلال عدد ١٦٠ يوليو ١٩٦٤ ص ٢٦

الحب – فلسفتى فى الحياة – الحياة هل هى جديرة بأن نحياها ؟) . الفصل السابع (طفت العالم من مكانى- أجمل أيامى – أكره الصيف) . الفصل الثامن (بعد الأربعين – وحى الخمسين – وحى الستين – وحى السبعين - اعترافاتى) . الفصل التاسع (فى مكتبتى – بين كتبى – فى بيتى) . وهذه المقالات لا نجد فيها الرابطة المحكمة والتسلسل المنطقى بين فقراتها ، ولكن رغم ذلك تصور لنا ملامح صاحبها الفكرية والعلمية والروحية من حبه للانطواء فقد ورث هذا الطبع عن أبيه ، وحبه للصداقة وكرهه للعداوة ، ولكنه لا يعرف التوسط منهما ، ويميل إلي التنظيم والمثابرة ، وهو مؤمن بالله إيماناً عن شعور وتأمل وتفكير طويل ، فقد نشأ بين أبوين شديدى التمسك بالدين ، لا يهملان فى فريضة من الفرائض ، كان يصطحبه أبوه لصلاة الفجر ، وأمه من المصليات الملتزمات ، وكان شغوفاً بالبحث عن ذاته محاولاً معرفة نفسه ، ويقصد بالنفس هنا حدود النفس، فيجعلها فى خصائص وصفات بعينها ، ويرى أن أخص خصائصه الذاتية التى صيغ فيها نسيج شخصيته ، هى أنه عرف أن يثق بنفسه ويعتمد عليها ، وأنه كلف بالعزلة والانطواء والتأمل والجد ومجانبة الهزل ، والإقبال على المطالعة منذ صباه الباكر، وأنه عرف من تجارب حياته تغيظ الناس من مزايا ينفرد بها ، وقد يرضون بالنقص الذى فيه ، لأنه يكبرهم فى رأى أنفسهم ، ولكنهم يسخطون على مزاياه ، وأعجب ما عرف من حدود نفسه أنه يسيء الظن بالناس ، لأنه يحسن الظن بهم ، فيجب على مثله أن يسيء الظن حتى لا يقع فى خطأ جسيم ، لذا أخذ يعامل الناس " كأنهم مواد مجردة من الضمير ، لا كأنهم شخوص ومحسوسات ، فعشرة ملايين جنيه مثلاً ، معناها عندى المتعة أو الترف

أو السطوة أو الجاه ، وطلبى لها يتوقف على حاجتى إلي تلك المعانى ، لا على حسابها بلغة الأرقام والمصارف " (١)

ومن معرفته لحدود نفسه كره الظلم والشر ولا يفرق بين معرفته لحدود نفسه كره الظلم والشر ولا يفرق بين الفعل وصاحبه ، فصاحب الخبث لا يكون صاحبه من الأطهار (٢)

ومن الصفات التى عرف بها منذ الصغر الرفض والعناد والتمرد ، فمنذ كان طفلاً رفض لبس البنطلون القصير عند دخوله المدرسة ، ورفض أن يجيب نداء المعلم بقوله (عباس حلمى) ورفض فرض أبيه عليه صلاة الفجر قبل وصوله العاشرة من عمره . . . ومن صفاته منذ الطفولة والصبا الباكر صفة الجد والوقار وكراهته العبث وميوله بالفتوة والفروسية ، وشعوره بالتفوق على أقرانه من التلاميذ ، وقد ترسخ هذا الإعجاب بالذات فى روعة فجعله يشعر بالشموخ والعظمة والتعالي ، وعرض فى سيرته حبه للقراءة والكتب المفضلة ، ومنهجه فى كتابة المقالات ومنهجه فى التأليف ، بل والقضايا الإنسانية عامة كفلسفته فى الحب وفلسفته للموت والحياة ، ليبلور لنا ملخص هذه الفلسفة بقوله " غناك فى نفسك وقيمتك فى عملك ، وبواعثك أحرى بالعناية من غاياتك ، ولا تنتظر من الناس كثيراً " (٣)

رغم كل ما صورته لنا السيرة من أخلاق وصفات صاحبها ، إلا أنها افتقدت كثيراً من القيم النفسية فهى تفتقد الرابطة المحكمة بين فصولها ، ومرجع ذلك انتهاجها النهج المقالي الذى يقوم على التفسير والتحليل والتدليل . وتفتقد فى هذه السيرة الصراع الداخلى

---

١ - راجع : م. نفسه ص ١٢٧ .
٢ - راجع : م. نفسه ص ١٤١ .
٣ - راجع : م. نفسه ص ٢١٧ .

الذى يعطى السيرة النهج والتآلف ، ومشاركة المتلقى لصاحب السيرة فى معاناته وآلامه . . إضافة إلي التعالي والشموخ الذى يخل بالصراحة والصدق ، فالعقاد يتحدث بصوت عالٍ وبلهجة منفرة ، بعيداً عن الضعف الإنسانى ، وبعيداً عن الصراحة التى تملى على صاحبها أن يذكر مواقف حرجة من حياته ، أو تتوغل إلي داخله لترى (العقاد الإنسان) لا العقاد السوبرمان ، لدرجة أن الدكتور على الراعى رأى فيه أنه بلغ الزهو والتمجيد حداً يمكن أن يعد ضرباً من ضروب عبادة الذات[١] كل ذلك أخل بالعنصر الجمالي للسيرة ، ونعرض الآن لنموذج من عرضه ليدلل على أسلوبه المقالي التحليلى (من مقالة أنا)[٢] يبدأ بمقدمة : الكاتب الأمريكى وندل هولمز يقول : إن الإنسان كل إنسان بلا استثناء . . إنما هو ثلاثة أشخاص فى صورة واحدة ، الإنسان كما خلقه الله ، والإنسان كما يراه الناس والإنسان كما يرى هو نفسه ، فمن من هؤلاء الأشخاص الثلاثة هو المقصود بعباس العقاد؟

ثم بعد ذلك يحدد الإنسان الذى سيكتب عنه العقاد (العقاد كما أراه ص٢٧ وبعدها يعرض للعقاد كما يراه الناس : رجل مفرط الكبرياء . . رجل مفرط القسوة والجفاء ورجل يعيش بين الكتب ، ولا يباشر الحياة كما يباشرها سائر الناس ، ورجل يملكه سلطان المنطق والتفكير ، ولا سلطان للقلب ولا للعاطفة عليه ورجل يصبح ويمسى فى الجد الصارم . .) ثم بعد ذلك ينقض كل هذه التصورات عنه ، يقول نقيض ذلك هو رجل مفرط فى التواضع ورجل مفرط فى الرحمة واللين ، ورجل لا يعيش بين الكتب إلا أنه يباشر الحياة ، رجل لا يفلت لحظة واحدة فى ليله ولا نهاره من سلطان القلب والعاطفة ورجل

١ - راجع : دراسات في الرواية العربية د٠ علي الراعي القاهرة المؤسسة العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر عام ١٩٦٤ – ص ٧١ – ٧٣ ٠
٢ - راجع : أنا العقاد ص ٢٦ – ٣٩ ٠

وسع شدقاه من الضحك ما يملأ مسرحاً من مسارح الفكاهة فى روايات شارلى شابلن . ثم يعرض بعد ذلك محللاً ومقراً لأخلاقه صفة صفة ليرد على مزاعم الناس فى تصوراتهم له يقول : إننى لا أزعم أننى مفرط فى التواضع ، ولكننى أعلم علم اليقين أننى لم أعامل إنسانًا قط معاملة صغير أو حقير . . وأعلم علم اليقين أننى أمقت الغطرسة على خلق الله

ويدافع عن عزلته : إننى مطبوع على العزلة والانطواء على النفس ، إضافة إلي ذلك صدمته من (العواطف المزيفة أروج فى هذه الدنيا من العواطف الصحيحة) ثم يذكر من صفاته الحقيقية (أننى لا أميل إلي التوسط فى الصداقة ولا فى العداوة ، فلا أعرف إنساناً نصفه صديق ، ونصفه عدو ، وإنما أعرف صديقاً مائة فى المائة ، أو عدوًا مائة فى المائة) . . إلخ .

هذا أسلوبه فى كل فقرة من فقرات فصوله ، يبدأ بمقدمة ، ثم يعرض لأفكاره وبعدها يناقش ويحلل ويفسر ويبرر ، ويرد على أى فكرة لا تعجبه ، وينتهى بخلاصة (ختام فقرته على غرار المقالة) .

فلا نجد فى عرضه الإثارة والمتعة الجمالية للتصوير الجميل للمواقف ، والصراع الدرامى الذى يعطى العمل الأدبى النبض والحياة ، ويدفع المتلقى لمشاركة المؤلف فى مشاعره وأحاسيسه . .

-٤-

ومن السير التى اعتمدت على المقالة فى صورتها الصارمة ، دون الإفادة من المعطيات الفنية للتقنيات الفنية لفن الرواية (تربية سلامة موسى) [١] ، والتى لا تعدو أن تكون مجموعة مقالات مختلفة تناول فيها موضوعات عدة ، ضم بعضها إلي بعض ، بدون رابطة

١ - راجع : تربية سلامة موسى : سلامة موسى ط مؤسسة الخانجى عام ١٩٥٨ م .

نابعة من داخل هذه المقالات ، وافتقاد النص لرسم صورة لحياة صاحبها وتطوره الفكرى والروحي والوجداني ، وقد سار فى تأليفه كالآتي : - المقالة الأولى عن (الطفولة والصبا) والمقالة الثانية عن (أمه وأخوته) والمقالة الثالثة عن (القاهرة بين سنة ١٩٠٣ : ١٩٠٧) والمقالة الرابعة سماها (أول وجدانى الذهنى) والمقالة لخامسة بعنوان (كرومر وجروست وكتشنر) والسادسة بعنوان (هذه الأفاق الأوروبية تفتح لى) والسابعة عنوانها (أنا أنا أربى نفسى) والثامنة عنوانها (تربيتى الأدبية) والتاسعة عنوانها (تربيتى العلمية) والعاشرة بعنوان (ذكريات الحرب العالمية الأولى) . . إلخ . ويمضى على هذا النهج متناولاً موضوعات اجتماعية وسياسية وأدبية وعلمية لا يؤلف بينها ترابط محكم ولا وحدة متسقة

-٥-

يزاوج ميخائيل نعيمة فى (سبعون) بين أسلوب المقالة الذى يقوم على التحليل والتفسير وبين الأسلوب الروائى ، الذى يقوم على التصوير ، وخلق نوع من الرابطة الفنية بين الفقرات ، واستخدام الحوار الدرامى ،وخلق جو من الصراع فى عمله الأدبى ، وقد قسم " ترجمته الذاتية إلي ثلاثة أجزاء ، وكل جزء يقسمه إلي فصول ، وكل فصل من هذه الفصول يشبه القصة القصيرة ، بما يبثه فى ثنايا كل منها ، من عناصر فنية كالتصوير والتخيل الطفيف ، والحوار الأدبى ، والسرد المترابط ، والتحليل المستقصى للظاهرة أو الحدث أو الموقف ، ومن مجموع هذه القصص القصيرة يحصل على إقامة رابطة خارجية تؤلف بينها جميعاً فى سياق متسق ، وتركيب مترابط " (١)

الجزء الأول صور مرحلة طفولته وصباه ومطلع شبابه من عام (١٨٨٩ : ١٩١١) وقد تناول فيه لطفولته وتعليمه فى قريته بسكتنا ، ثم دار المعلمين بمدينة الناصرة ، ثم

١ - الترجمة الذاتية فى الأدب العربى الحديث د . يحيى ابراهيم عبد الدايم ص٣٥٤ .

مدرسة السمنار الروحى فى مدينة بولتافا فى (روسيا) والجزء الثانى يعرض لحياته من عام ١٩١١ : ١٩٣٢ فى مدينة والاوالا (فى ولاية واشنطن بالولايات المتحدة) ، ويعمل بالجيش الأمريكى أثناء الحرب العالمية الأولى من عام ١٩١٨ : ١٩١٩ ، ويعود فيزاول نشاطه الأدبى بأمريكا حتى عودته إلي لبنان عام ١٩٣٢ . والجزء الثالث يعرض لحياته من عام ١٩٣٢ : ١٩٥٩ (زمن كتابة السيرة) حيث انقطع لحياته الروحية والفكرية بقريته وقد أثنى د٠يحيى عبد الدايم على هذه السيرة وبشكلها الفنى (المميز) والذى يجمع بين أسلوب المقالة والأسلوب الروائى فقال " وقد صاغها فى وحدة فنية متميزة بين ترجماتنا الذاتية الحديثة ، قوامها الجمع بين عناصر من البناء الروائى المسرحى ، وبين عناصر أسلوب المقالة التحليلية ، وقد صيغت كلها صياغة أدبية ، فيها قدر كبير من الإحكام والترابط والتسلسل ، وفيها حرص على إثبات عناصر الترجمة الذاتية الأدبية المثيرة لعوامل المتعة ، على نحو لم يتح لغيرها مما بين أيدينا من الترجمات الذاتية العربية رغم ما يعاب عليها من مآخذ قليلة " (١) .

ولعل أول مايميز هذه السيرة - كما سنعرض فيما بعد – الطابع الروحى الذى امتازت به فهى تعالج رحلته الروحية فى طريق الصفاء الروحى الذى انتهى بنظرية (وحدة الوجود) التى نادى بها كثير من المتصوفة ليرى نفسه جزءا من هذا الكون بما فيه من كائنات ومخلوقات ، وأن " الحياة وحدة شاملة كل الشمول ، ومنظمة أبدع التنظيم وأن ما يصدر عنها لا يصدر ارتجالاً واعتباطا ، بل عن قصد وتصميم ، وأن الإنسان يسعد ويشقى على قدر ما ينسجم بتفكيره وسلوكه مع تلك الوحدة "(٢) .

١ - م. نفسه ص ٣٠٩ .
٢ - سبعون حكاية عمر المرحلة الثالثة ميخائيل نعيمة دار صادر بيروت ط٢ ١٩٦٦ م ص ٥٧

وقد صاغ سيرته صياغة قصصية ، تعتمد على التسلسل الزمنى ، والترتيب المنطقى والتدرج فى رواية ما يسترجعه من ذكريات الأحداث والمواقف ، التى صورت تطور حياته الفكرية والروحية ، وعلاقاته بكثير من أصدقائه ومعاصريه ، وقد راعى الدقة فى ذكر الأماكن والشخصيات التى تعامل معها ، وتواريخ هذه الأحداث والرسائل المتبادلة مع أصحابه والمعجبين به ، إن كان يؤخذ على هذه السيرة الترهل فى البناء ، ويرجع ذلك إلي استطراده والتفاصيل المسهبة ، وحشو السيرة بالرسائل التى أرسلها إليه المعجبون والمعجبات به ، فالسيرة فى ثمانمائة وخمسين صفحة (فى ثلاثة أجزاء) كان يمكن أن تختزل فى نصف هذا الحجم بما يدور فى فلك حياته ، بعيداً عن هذا الحشو والإسهاب والتكرار.

ومن المآخذ التى تؤخذ على هذه السيرة إعجابه بنفسه الإعجاب الذى يصل إلي درجة الزهو والخيلاء مما يقلل صراحته وصدقه ، ومن الأمثلة التى تدل على ذلك ، تعليقه على رسالة من الرسائل التى بعثها إليه قراؤه وأصدقاؤه وفيها يشيد بنتاجه الفكرى يقول " لو أنا شئت أن أنشر كل ما اتصل بى ، من عبارات تقديرهم لاستغرق الأمر أكثر من مجلد " (١) . وقوله تعليقاً على إحدى هذه الرسائل " وهى تندرج كلها من التقدير الرصين إلي الإعجاب الذى يكاد يبلغ حد التأليه والعبادة "(٢) . ومنها ما يذكره عن تعليق أحد الأساتذة الروس مشيداً بتفوقه الدراسى أثناء دراسته فى السمنار الروحى " إن من العار عليهم أن يبزهم فى درس لغتهم ، تلميذ غريب عن لغتهم " (٣) . لقد نجح الكاتب فى المزاوجة بين الأسلوب المقالي والشكل الروائى فى تقنياته الفنية التى عرضنا لها فى

١ - سبعون المرحلة الثالثة ميخائيل نعيمة ص٢٠٤ .
٢ - م. نفسه المرحلة الاولى ص ١٢ .
٣ - م. نفسه المرحلة الاولى ص ١٧٤ .

أسلوب أدبى ، يمتاز برتاقة الألفاظ ، ورشاقة العبارة ، وروعة التصوير ، فى أسلوب يأخذ بعنان المتلقى ، فيسحر لهذا الوهج الأسلوبى ، ليشارك صاحبه فيما يرويه ويغوص به فى أعماق نفسه ، مسجلا ذبذبات النفس وخلجاتها الدقيقة ، ولنقف على جزء من أول فقرة فى السيرة (أب فى السماء وأب فى أمريكا) : " قل معى يا ابنى ، أبانا الذى فى السماوات ليتقدس اسمك ، ليأت ملكوتك ، لتكن مشيئتك كما فى السماء ، كذلك على الأرض " .

" وتأتى أمى على آخر الصلاة القصيرة والوحيدة التى علمها المسيح لتلاميذه ، غير مبالية بما تنزله بها من تهشيم فى اللفظ وقواعد اللغة ، فقد عاشت عمرها وأحرف الهجاء عندها ألغاز . . " .

وما إن تنتهى أمى من الصلاة " الربانية " حتى تمضى فى دعاء طويل من أجل اللذين لهما فى قلبها وحياتها المنزلة الأولى : قل معى يابنى : يارب وفق أبى فى أمريكا – إذا أمسك التراب فينقلب فى يده ذهباً ، رده إلينا سالماً .. يارب خل لى أخوتى . . يارب خل لى إبراهيم . . وأورد ما تقوله أمى بلسان يتثاقل فى حركاته بنسبة النعاس فى أجفانى ، وأطبق عينى على صور غريبة رسمتها كلمات أمى فى مخيلتى ، صورة أب قالت لى أمى إنه ليس من لحم ودم ، وإنه يسكن السماء . ذلك الفضاء الأزرق حيث الشمس فى النهار والقمر والنجوم فى الليل ، فما أدرى كيف أتخيله . . فأتخيله علماً بشاربين أضخم بكثير من أى شاربين وقعت عليهما عيناى ، وأتخيل أمريكا بلاداً وراء الأفق ، يقفش فيها الناس التراب فيتحول ذهباً . (١)

١ - م. نفسه المرحلة الاولى أب فى السماء وأب فى أمريكا ص ١٦:١٧ .

obeikandl.com

هذا أسلوب الكاتب الذى يتصف بالرشاقة ، ورصانة الألفاظ ، والتصوير الجميل لخيال الطفل الذى يحاول بمخيلته أن يرسم صورة لأبيه الغائب وصورة لأمريكا هذه البلاد التى تسحر الحكايات عنها اللب والخيال ، ويلجأ – كثيراً – إلي مناجاة الذات – واستخدام الحوار ، ونضرب مثالاً لهذه المناجاة الذاتية التى تستبطن أغوار نفسه يوم سفره الأول يقول " وتتحرك الباخرة ، فتحين منى التفاتة إلي الشرق ، وإذا بعينى تقع على جهة حنين ، وقد ألقت الشمس عليها وشاحاً ساعة غيابها . . ، ويهتف هاتف فى داخلى واحسرتاه عليك يا ميخائيل . . . أين كنت وأين أنت ؟ . . هاأنت هاهنا – على ظهر خشبات عائمات فى بحر شاسع . . وحواليك أناس يؤذيك لفظهم . . إنك غريب يا ميخائيل غريب " . (١) والأمثلة كثيرة لسيرة حجمها كما ذكرنا (٨٥٠ صفحة) وما ذكرناه ما هو إلا تدليل على جمال أسلوبه اللغوى فالسيرة – هنا – منظومة أدبية جميلة تتصف بالرشاقة والجمال – إن الأدب تعبير لغوى قبل كل شيء ، وجمال اللغة هو المرجع الأول لجمال الأدب وخلوده ، إن جمال سيرة (سبعون) يتجلى فى هذا الوصف الإجمإلي لها .

إنها " بناء وسط بين البناء الروائى والدرامى ، وبين فن المقالة ، وقد تجلت هذه البنية – بين أجزاء الحقيقة التى يسردها سرداً قصصياً ، فى صدق وفى مصارحة تكشف الصراع ، . . وهو فى هذا الرد يعتمد على التصوير والتخيل ونجوى الذات ، والتشويق والانفعالات بالحدث ، وعلى الحوار وعلى التحليل للأحاسيس والانفعالات والتأملات والأفكار ، وكل هذه العناصر التى صاغ منها تركيب ترجمته ، وهى الأسس الرئيسية التى قامت عليها الترجمة الذاتية الحديثة ". (٢)

١ - م. نفسه المرحلة الأولى (الغربة الأولى) ص١٠٣ .
٢ - الترجمة الذاتية فى الأدب العربى الحديث د . يحيى ابراهيم عبد الدايم ص٣٦٦

-٦-

وعبد الله الطوخى فى ثلاثية عينان على الطريق (التكوين – التمرد – سنوات الحب والسجن) يتبع فى الجزئين الأولين منهجاً يزاوج بين أسلوب المقالة والأسلوب الروائى . يقسم سيرته فى العملين إلي فقرات وكل فقرة تبدأ بمقدمة ، ثم يعرض لحدث أو لموقف من مواقف حياته ، مفسراً ومحللاً له . . ويختم الفقرة (أو المقالة) بخاتمة كما اعتدنا على هذا التركيب فى فن المقالة ، ولكنه فى عرضه لسيرته يستعير من الفن الروائى التصوير واستبطان الذات ، واستخدام الخيال بقسط محدود ولكن فى الجزء الثالث (سنوات الحب والسجن) يستخدم القالب الروائى .

لقد قسم الكاتب السيرة إلي فقرات كما ذكرنا وكل فقرة تعد مقالة مستقلة تبرز لنا بعداً من أبعاد هذه الشخصية ، أو حدثاً من أحداث حياته ، لتعكس لنا السيرة فى النهاية حياة عبد الله الذى نشأ فى ميت خميس بالمنصورة عام ١٩٢٦ م يتميم الأب تاركاً لهم الأب بعد وفاته عشرين فداناً ، وتكفلت أمه بتربيته ، التحق بالمدرسة الابتدائية فى المنصورة ، وبعدها بالمدرسة الثانوية بالمدينة ذاتها ، ثم انتقل إلي إلي الجامعة (كلية الحقوق) وبدأت مواهبه الفنية تتفتح فى هذه المرحلة ، فبدأ يكتب القصص القصيرة وانضم إلي التنظيم الشيوعى مع زملائه عاكف الرفاعى ومراد زكى ، وكانت نهايتهم السجن ، وتعكس لنا السيرة كثيراً من السمات النفسية والمزاجية لصاحبها ، وفترة الطفولة والأحلام الصغيرة ، والعادات الريفية ، والمواقف الطريفة التى تعرض لها ، وبداية ولعه بالفن ودخول السينما وغرامه بأفلام طرزان ، وقراءة قصص أرسين لوبين ، ثم القصص الفنية الجادة (البوساء لفيكتور هوجو - مدينتان لتشارلز ديكنز – الشاعر سيرانودى برجراك . . إلخ) .

وأثر التربية التى غرست فى نفسه الاعتماد على النفس والولاء للقرية والأهل . . . إلخ . ونظرة إلي عناوين فقرات سيرته فى الجزئين تعكس لنا عدم وجود الرابطة المحكمة ولا التسلسل التدريجي للأحداث (التكوين – الخروج من الرحم – والصبح إذا تنفس – فقدت عينى لدى الأخرى – رجل تخشاه العفاريت – ميلاد التناقض – صندوق الجنس الخفى – المنديل الدامى – الحب من فوق المئذنة – شبح أحلام الفتيات – صاحب الجلالة الذاكرة وفرسان الظلام – فيضان الماء وفيضان الدم – الوحوش والجنة – طرزان وحياة الظلام – قراءات ممنوعة – القطار المجانى – غريب بداخلى - الحب الأول- العراء – ومن الحب ما قتل – صيف الوداع – التمرد – ترنيمة قبل الإبحار – القاهرة من فوق عربة كارو وجه الشيطان الملائكى – سيمفونية الفرح – يوم الافتتاح العظيم – قلبى مرعى لغزلان – زهرة الأقحوان . . إلخ) .

ونقف على فقرة واحدة بعنوان (غريب بداخلى) والذى يصور فيها بداية فترة المراهقة عند الكاتب ، يستهل الفقرة بمقدمة – كما فى المقالة – قائلاً " ولا أستطيع وأنا أمضى بالذاكرة متتبعاً جذور التكوين الأولى بعد أن حصلت على الشهادة الابتدائية . . لا أستطيع أن أمر على تلك الفترة دون وقفة خاصة عند أخطر تغيير ، أو أقل أخطر انقلاب حدث فى حياتى فى تلك الفترة وزلزلها ، إلا وهى البلوغ الجنسى . . والنضج الجسدى " (١)

هذه مقدمة وتمهيد لفقرته (أخطر تغيير وأخطر انقلاب فى حياته . .) ثم يعرض بعد ذلك لهذه المرحلة مستخدماً إحدى التقنيات الروائية فى استبطان الذات ، ليعرى لنا هذا الشعور الغريب الذى انتابه فى هذه المرحلة يقول " كان تمام بلوغى هو النافذة الإلهية الجديدة التى رحت أطل منها على عالم آخر جديد تماماً – هو عالمى الداخلى . . عالم ذاتى

١ - عينان على الطريق (التمرد) عبد الله الطوخى ط الهيئة المصرية العامة للكتاب – مهرجان القراءة للجميع عام ٢٠٠٢ م ص ١٥١ .

مدهوشاً وفرحاً ومرتعباً أيضاً من ذلك الساكن الجديد الذى دخل جسمى فجأة وانتشر فى كل أنحائى ، وأمدنى بطاقة هائلة غيرت من إحساسى بنفسى ، وبمنظر الأشياء فى عينى وحيرتنى "[١] ، وبعد استبطان ذاته لهذا الزائر الجديد يعود إلي أسلوب المقالة فى التحليل والتفسير قائلاً " هى فترة صراع عنيفة وغريبة ، وما من أحد منا إلا ومر بها ، وله تجارب فيها يخفيها – فى أعماق صندوقه الخفى . . حريصا على ألا يراها إنسان آخر حتى هو نفسه ، يطرحها عن ذهنه بعيداً ، يلقيها فى بئر النسيان ، ولكنها أحيانا تطفو – تتراءى له – وهو فى لحظة مستوحدة فريدة وهو نائم فى سريره فى رحم الظلام ، أو هو منطلق على جناح طائرة ، أو فى وحدة صحراوية أو ثلجية ، مطمئناً إلي أن أحداً لا يرى ما يراه ، ويتعجب من نفسه : كيف كان يحدث هذا ؟ "[٢] .

فترة صعبة وحرجة فى حياة أى إنسان ، يحرص كل إنسان على إخفائها حتى عن نفسه . . ولكن أحياناً تطفو على الذهن ، وربما يرفضها كثيرٌ منا . . . وبعدما يعرض لهذه التغيرات الجسمية والفسيولوجية التى طرأت عليه ، فأول هذه الأغراض تغير صوت الحنجرة فيصبح غليظاً ، وشعوره بكبره ودخوله مرحلة الرجولة فيقوى بنيانه الجسدى فقصر عليه البنطلون حتى أنه من يراه يظنه من الفقراء الذين يرتدون لبسهم فترة طويلة ولا يغيرونه حتى ولو أصبح صغيراً عليهم ، ويصحب هذه المرحلة التوتر والقلق الفكرى يقول فى أسلوب تقريرى (مقالي) " كانت مرحلة من أشق مراحل " حياتى معاناة وعذاباً – وضياعاً !! كنت ممزقاً بين تلك القيم والأفكار التى تربيت عليها من صغرى فى القرية ، والتى تربط الجنس بالنجاسة والزنا والحرام ، وبين تلك الندوات الجديدة التى يضج بها داخلى من أجل أن أمتزج بالجنس الأخر "[٣] .

---

١ - م. نفسه المرحلة الاولى ص ١٥٢ .
٢ - م. نفسه ص ١٥٢.
٣ - م. نفسه ص ١٦٠ .

رغم أن هذا أسلوب تقريرى إلا أنه يضمنه تقنية روائية وهى الصراع الداخلى ليمور داخله محاولاً اللحاق بالجنس الآخر، وتحقيق رغبته الجنسية العارمة، ويستجيب لهذا النداء ولكن على استحياء من العرف والناس فى المجتمع، فيبهر بجمال الخادمة فى بيت أخته، ويتسلق النافذة ليرى كما يقول (الأنثى العارية تحت الدش وخيوط الماء تغسلها وتحتويها هى وشرتيها) ص ١٦١ . وما إن تراه الخادمة متسلقاً، حتى يأخذه الخجل والحياء، فيرتد بسرعة هابطاً (من على الماسورة) ويتتبع هنا حركات نفسه الداخلية فى صراعها مخافة من تبليغ الخادمة أخته عما حدث، فيروح ويجيء فى الشقة ناظراً فى عينى أخته . . وفى عينى الخادمة التى طمأنته بأنها لم تقل شيئاً لأحد .

ويستمر هذا الصراع النفسى يلاحقه حفاظاً على وجوده الاجتماعى، وعلاقته بأخته والمصير الذى كان يتوقعه لو سقط من الدور الثالث يقول " وقد ظللت لفترة طويلة يلاحقنى هذا الحادث، كأنه كابوس مخيف واستيقظت منه، فما الذى سيقوله الناس عنى لو كنت – بغلطة بسيطة – سقطت من الدور الثالث وأنا أحاول أن أرى فتاة عارية تستحم " . (١)

ويختم فقرته (أو مقالته) بعبارة أشبه بالحكمة، أو خلاصة التجربة إذا يقول "لا خلاص من هذه القوة الشيطانية إلا بأن أقتلها فى نفسى وأن تتنكر لها يا عبد الله فى الروح وفى المجيء . . وأن تقيم الصلوات الخمس " . (٢)

نخلص من هذا بأن الكاتب يزاوج بين أسلوب المقالة فى العرض(مقدمة – عرض موضوع – التفسير والتحليل - الخاتمة) ولكن وسط هذا البناء المقالي يراوح بينه وبين الأسلوب الراوائى فى استخدامه للتصوير، وفى السرد للأحداث (كما سرد لنا تسلقه

١ - م. نفسه ص ١٦٢ .
٢ - م. نفسه ص ١٦٢ .

للمبنى لرؤية الخادمة) ومن تقنيات الرواية استبطان الذات والصراع الداخلى الذى يعطى الحدث الحياة والنبض .

وهذه السيرة التى سنؤجل الحديث عن جزئها الثالث (سنوات الحب والسجن) لأنه اتبع القالب الروائى فيه ، هذه السيرة تفتقد كثيراً من الجماليات الفنية التى تفقد جمالها الفنى ، منها الاستطراد والحشو حتى أننا نجد فقرات بأكملها لا تروى لحياة صاحبها (كحديثه عن العميان فى قريته فى الفقرة التى عنوانها صاحبة الجلالة الذاكرة وفرسان الظلام من ص ٨٥: ٩٦) – وحديثه عن الانحرافات الجنسية التى وقعت فى قريته فى فقرة صندوق الجنس الخفى من ص ٤٩:٥٦ ، وحديثه عن خزعبلات المشايخ فى قريته فى فقرة المنديل الدامى من ص ٥٧:٦٥ وحديثة عن الأطفال بمولد سيدى حسن البادى وأفكار البنات فى الزواج حيث يتمسحن بضريحه من ٧٧:٨٤ إلخ .

ومن السلبيات – أيضاً – افتقاد اللغة النصاعة والروعة فى كثير من أجزاء السيرة وإن كان يحمد لصاحبها التزامه بالصدق والصراحه فلم يتورع أن يذكر لنا كثيراً من سلبياته ومواقف الضعف التى مر بها ، خاصة فى علاقاته الجنسية بالمرأة ، ولم يتورع أن يذكر صداقته للخادم عبد العزيز ، حتى أنه كان يذهب معه إلي السينما ، ولم يتورع أن يذكر إعجابه بجسد الخادمة سعدية ص٧٠، ومر بنا ملاحقته خادمة أخته ، وذكر أنه ذهب إلي بيت البغاء مع أحد أقربائه ، ولكنه هرب ص ١٨٧ ، ويذكر علاقته الآثمة بالخادمة (خديجة) (ص ٢٩٦ التمرد) وامرأة أخرى جاءت تسأل عن صديقه عاصم النبراوى (ص ٣٠٦ التمرد).

٢- الشكل التأريخى الراصد

- ١ -

اقصد بالشكل التأريخى الراصد هو الذى ينهج فيه المؤلف نهج المؤرخ فى تتبع سيرة حياته فى شكل تصاعدى للاحداث ، وبحيادية تامة ، وكأنه يرصد حياة غيره فنفتقد البعد الداخلى للأحداث ، وبأسلوب علمى صارم ، فلا مجال للخيال ، ولا اللغة الموحية المعبرة عن المعانى وظلال المعانى ، بل اللغة الصارمة الدقيقة ، ففى هذا الشكل نفتقد التصوير والحوار الدرامى ، واستبطان الذات ، ورتاقة اللغة ، إن المؤلف يرصد لأحداث حياته بمنهج المؤرخ ، لا بتصور الأديب الذى يخلق نصاً فنياً ، ومن النماذج التى تمثل هذا الشكل (حياتى) لأحمد أمين ، و(معى) لشوقى ضيف ، و(سنوات وذكريات سيرة ذاتية) لأحمد هيكل .

- ٢ -

تناولت سيرة أحمد أمين (حياتى) لحياته منذ ولادته فى حي الخليفة عام (١٨٨٦ م) حيث كان أبوه يعمل مدرساً فى الأزهر وفى مسجد الأمام الشافعى ، وعمل مصححاً فى المطبعة الأميرية ببولاق ، لقد حفظ القرآن فى الكتاب صغيراً ، ثم التحق بمدرسة عباس ، ثم أدخله أبوه الأزهر ، وتركه والتحق بمدرسة القضاء الشرعى ، فتخرج منها ، وعمل مدرساً ثم قاضياً شرعياً ، ثم مدرساً للغة العربية فى كلية الآداب ثم عميداً لها ثم اختير مديراً للثقافة بوزارة التربية والتعليم ، وألف مع زملائه من خريجى مدرسة المعلمين (لجنة التأليف والترجمة والنشر) سافر إلي أكثر من بلد ، وشارك فى مؤتمر المستشرقين عام ١٩٣١ م ، وعام ١٩٣٨ م فى بروكسل ، ومثل مصر فى مؤتمر فلسطين عام ١٩٤٦ م ، ومنح درجة الدكتوراه الفخرية وجائزة الدولة الأدبية ، وإن كانت هذه السيرة من

أكمل السير لأن صاحبها كتبها عام ١٩٥٠ م وقد توفى عام ١٩٥٤ م ، وبيد أن هذه السيرة وإن كتبها فى آخر أيامه " لا تعنى بهذه الحياة بمقدار ما تعنى بالأحداث الهامة التى ارتبطت بها ، فهو فيها إلي ذوق المؤرخين أقرب منه إلي ذوق الأدباء مثل طه حسين .. فانحدر فى أغلب من تاريخ نفسه إلي تاريخ عصره ، ولم يعن بأحداثه بل تحول مؤرخاً يسجل ، وهو فى هذا التسجيل قلماً انفعل بما يرى ويشاهد " (١)

ومن قبل ذكر هذا الموقف د . إحسان عباس فى قوله " والحقيقة أن أحمد أمين عاد بالسيرة الذاتية إلي التاريخ ، وابتعد عن الناحية الفنية ، التى تجعل من السير الذاتية ينبوعاً يتدفق من النفس ويفيض على ما حولها "(٢) .

لقد التزم أحمد أمين بهذا المنهج من بداية سيرته ، فراح يفحص مكونات حياته من وراثة وحياة اقتصادية وثقافية أحاطت به ، وهو فى هذا يظهر ولاءه للمدرسة الطبيعية التى تعنى بالزمان والمكان ، وهذا المنهج فى سيرته جاء امتداداً لمنهجه العلمى فى الدراسة الأدبية ، حيث يقوم بدراسة الحياة السياسية والاجتماعية والدينية للفترة الزمنية التى يقوم بدراستها كما فعل فى فجر الإسلام وضحى الإسلام ، وهنا فى _ السيرة – يتتبع هذه العوامل ، وخاصة عامل الوراثة فيقول " ما أنا إلا نتيجة ضمنية لكل ما مر على وعلى آبائي من أحداث ، فالمادة لا تنعدم ، وكذلك المعانى " (٣)

ويعرض بعد ذلك لأثر الوراثة فى تكوينه النفسى والخلقى قائلاً " فإن رأيت فى إفراطاً فى جانب الجد ، وتفريطاً فى جانب المرح ، أو رأيت صبراً فى العمل ، وجلداً فى تحمل المشقات واستجابة لعوامل الخوف ، أكثر من الاستجابة لعوامل السرور ، فاعلم أن

١ - الترجمة الشخصية د . شوقى ضيف ط دار المعارف عام ١٩٥٦ ص ١٢١ .
٢ - فن السيرة د . إحسان عباس ص ١٤٩ .
٣ - حياتى أحمد أمين القاهرة مكتبة النهضة المصرية عام ١٩٦١ م ص ٩ .

ذلك كله صدى لتعاليم البيت ومبادئه ودينا يسكن فى أعماق قلبى ، وإيماناً باللّه لا تزلزله الفلسفة . . أو رأيت بساطتى فى العيش . . وبساطتى فى حديثى وإلقائى ، وبساطتى فى أسلوبى وعدم تعمدى الزينة والزهو فيه ، وكراهيتى لكل تكلف وتصنع فى أساليب الحياة فمرجعه إلي تعاليم أبى ، وما شاهدته فى بيتى " (١) .

وجرياً وراء منهج المؤرخ يتتبع لتاريخ عائلته والأصل الذى انحدر منه ، من بلد سمخراط من أعماق البحيرة وكانت تملك اثنى عشر فداناً ، ولتوالي الظلم فى تحصيل الضرائب ، هجروا هذه القرية (٢) ثم يتتبع المكان الذى حلوا به بعد الهجرة (حى المنشية) بقسم الخليفة ، وفيها ولد ، وطالما ذكر الحى ، لابد أن يصف الحياة فى هذا الحى " كانت حارتنا تشمل نحو ثلاثين بيتاً ، يغلق عيها فى الليل باب ضخم كبير فى وسط باب صغير وراءه بواب ، وهذا الباب بقية من العهد القديم ، يحميها من اللصوص ومن ثورات الرعاع " (٣) .

ووصف المكان يلزم وصف عادات وتقاليد الساكنين فيه والصفات التى يتحلون بها مثل الكرم والتواد والمشاركة الوجدانية الفاعلة فى الأفراح والأتراح حيث " يعود بعضم بعض عند المرض ، ويعزونهم فى المآتم ، ويشاركونهم فى الأفراح ، ويقرضونهم عند الحاجة ويتزاورن فى (المناظر) فكل بيت من طبقة الأوساط كان فيه حجرة بالدور الأرضى أعدت لاستقبال الزائرين " (٤) .

ويصف بيوت الطبقة العليا وبيوت الطبقة الدنيا (ص٣٨) ثم يعرض للشخصيات الهامة فى حارته (الشيخ أحمد الشاعر – الشيخ أحمد الصبان إلخ) ويصف

---

١ - م. نفسه ص ٢٧ .
٢ - م. نفسه ص ١٢ .
٣ - م. نفسه ص ٣٥ .
٤ - م. نفسه ص ٣٥ .

أسواق الحارة ويطيل فى وصف حفلة زار لامراة ركبها عفريت ، ويعرض لدراسته فى كتاب القرية ، وتعلمه بدايات القراءة والكتابة . . كل هذا الوصف فى لغة حيادية جافة تفتقد الإيحاء والنبض والتصوير ، إنه يقوم بدور المؤرخ الراصد ، لا الأديب المبدع ، نقف على نص قصير من السيرة يعكس لنا صفات أسلوبه الفنى فى العرض ، يقول عن برنامجه اليومى " وقد وضع لى أبى برنامجاً مرهقا لا أدري كيف أحتمله ، كان يوقظنى فى الفجر فأصلى معه ، ثم أقرأ جزءين من القرآن ، وأحفظ متناً من المتون الأزهرية كألفية بن مالك فى النحو ، حتى إذا طلعت الشمس أفطرت ، ولبست ملابسى ، وذهبت إلي المدرسة أحضر دروسها إلي الظهر ، وفى فسحة الظهر أتغذى فى المدرسة على عجل ، وأذهب إلي كتاب بمسجد شيخون قريب من المدرسة ، وقد اتفق أبى مع فقيه الكتاب أن يسمع منى جزءا من القرآن ، حتى ما إذا ما أتممته سمعت جرس المدرسة ، ذهبت إلي الفصل ، ثم أحضر حصص المدرسة بعد الظهر. فإذا دق الجرس النهائى ، خرجت إلي البيت ، وخلعت ملابسى المدرسية ولبست جلبابا ، وذهبت إلي المسجد الذى أبى إمامه ، فمكثت معه من قبيل المغرب حتى يصلى العشاء ، استمع إلي درسه الذى يلقيه فى المسجد بين المغرب والعشاء ، ثم أعود معه إلي البيت ، وفى أثناء الطريق يحفظنى بيتا من الشعر أو بيتين ، ثم يسألنى عن إعرابه ، ويصحح لى خطئى ، كل ذلك ونحن سائران فى الطريق ، ثم أتعشى وأنام " . (١)

هذا الأسلوب علمى ، الألفاظ على قدر المعانى ، لأن صاحبه يهدف إلي توصيل أفكاره واضحة جلية ، لانجد فيها تصويراً جميلاً ، لا موقفاً مجسداً ، ولا ذاتاً منفعلة فتطبع الأحداث والأشياء بمشاعرها ، ولا نجد استبطاناً لمشاعره ، وجاءت اللغة باردة

١ - م. نفسه ص ٥٣ .

خالية من النبض والإيحاء ، حتى المواقف التى تثير الوجدان ، وتلهب المشاعر ، جاءت باردة ، لأن صاحبها يصف مثل هذه المواقف وصفاً إخبارياً وكأننا نقرأ خبراً فى جريدة من هذه المواقف وصفه لموت أخيه وصفاً بارداً يقول " هز (الطبيب) رأسه . . . ثم قال إنها الحمى التيفودية والحالة خطيرة . . اشتد عليه المرض ، واشتد منا القلق ، وانقبضت نفسى انقباضا شديداً . . واشتد الحال سوءاً ، وأخيراً بعد كرب شديد لفظ نفسه الأخير وقامت قيامة البيت ، وامتلأ عويلاً وصراخاً " (١) . وجاء سرده لموت أخيه الثانى أكثر برودا من الأخ الأول ، يسرد هذا الجزء قائلاً و" أصيب ثانياً أشد مما أصاب أولاً واستحضرت له الطبيب نفسه فقلب كفيه يخبرنى أن لا أمل ، وكانت النهاية ، وكان الحزن شديداً وكانت المصيبة قاسية (٢) . ومقارنة بسرد طه حسين لموقف موت أخيه يظهر لنا الفارق البعيد ، طه حسين يعيش الموقف من الداخل ويتحسسه فى كل أبعاده وأحمد أمين يخبرنا وكأنه قرأه فى جريدة ، طه حسين يصور ويجسد ويتوغل إلي أعماق النفس ، وأحمد أمين يرصد للحدث الرصد البارد الميت ، يقول طه حسين " كانت الدار هادئة مفرطة فى النوم كبارها وصغارها . . . ولكن صيحة غريبة ملأت هذا الجو الهادئ فهب لها القوم جميعاً . . وكان مصدر هذا كله صوت هذا الفتى وهو يعالج القيء ، وكان الفتى قضى ساعة أو ساعتين يخرج من الحجرة على أطراف قدميه ، ويمضي إلي الخلاء مجتهداً ألا يوقظ أحداً ، حتى إذا بلغت العلة منه أقصاها لم يملك نفسه ، ولم يستطع أن يبقى فى لطف ، فسمع أبواه هذه الحشرجة ، وفزع معها أهل الدار جميعاً . . فى أثناء ذلك كانت أم الفتى مروعة جلدة مؤمنة . . " (٣) ثم يتابع الموقف لحظة لحظة مصوراً جو

١- م. نفسه ص ١٢٣.
٢- م. نفسه ص ١٢٧ .
٣- الأيام طه حسين ط وزارة التربية والتعليم القاهرة ص١٠٥ .

البيت والحزن الكئيب الذى أحاط به ، وهدوء حشرجة الفتى ، ثم رجوعها ومجيء الطبيب وتضور الفتى ألماً إلي أن " ألقى الفتى نفسه على السرير ، وعجز عن الحركة وأخذ يئن أنيناً من حين إلي حين ، وكان صوت هذا الأنين يبعد شيئاً فشيئاً ، وأن الصبى لينسى كل شيء قبل أن ينسى هذه الأنة الأخيرة التى أرسلها الفتى نحيلة ضئيلة طويلة ، ثم سكت " (١)

فطه حسين يصور موقف الفتى فى لحظاته الأخيرة ، إنه يعيشنا سطوة الموت وجبروته لنعيش معه المأساة ، أما أحمد أمين فهو يخبرنا إخباراً وكأن الموقف لم يمسه من قريب أو بعيد ، حتى عندما أصيب فى نهاية حياته بانفصال فى الشبكية واستدعى الأمر إجراء عملية جراحية ، حالت دون الرؤية لمدة شهرين ، يقص علينا الخبر مجرداً من أحاسيسه ومشاعره ، فعندما أخبره الطبيب هذا الخبر يقول " وأكبر ما جال فى نفسى شعورى بحرمانى من القراءة والكتابة مدى طويلاً ، وأنا الذى اعتاد أن تكون قراءته وكتابته مسلاته الوحيدة "(٢) . ولانجد فى فترة انفصال الرؤيا قلقاً داخلياً يدفع بدرامية الأحداث ، مبرزاً الفارق بين الحياتين (الإبصار وعدم الإبصار) ومن المواقف التى كان يمكن أن تفجر أحاسيسه الدفينة ومشاعره النضيرة تقدير المجتمع له وحصوله على جائزيتن كبيرتين (الدكتوراه الفكرية وجائزة فؤاد الأول فى الآداب) ، يرصد هذا الخبر قائلاً " فى سنة ١٩٤٨ قرر مجلس كلية الآداب ومجلس جامعة فؤاد الأول منحى الدكتوراه الفخرية ، فلقبت بالدكتور أحمد أمين ، ومنحت جائزة فؤاد الأول وهى إحدى الجوائز التى تعد بألف جنيه مصرى ، وتمنح لمن ينتج أحسن عمل أو إنتاج فى الآداب والعلوم والفنون ، وقد أقيم الحفل كالمعتاد " (٣) .

---

١ - م. نفسه ص ١٢٧ .
٢ - حياتى احمد أمين ص ٣٢٣
٣ - م. نفسه ص ٣٣٩ .

وافتقاد السيرة لهذه المقومات الفنية التى عرضنا لها التصوير والتخيل ودرامية الأحداث . واستبطان الذات ، والتوغل فى أعماقه لإبراز مشاعره وأحاسيسه ، إضافة إلي افتقاد اللغة للنبض والحياة ، كل ذلك أخل بمبدأ المتعة الجمالية التى تجعل القارئ يشارك صاحب العمل الأدبى فى مشاعره وأحاسيسه ومواقفه من الحياة ، ويشعر فى الوقت نفسه بلذة وهو يقرأ هذا العمل ، ولكن رغم ذلك كله يحمد لصاحب السيرة الصدق والصراحة والتواضع فى عرضه للأحداث ، فلا نجد غروراً ولا تمجيداً للذات ، ولكنه رجل متواضع متزن النفس لا يحمل فى أعماقه حقداً دفيناً ، ولا غروراً مقيتاً .

-٣-

لا يختلف شوقى ضيف فى سيرته الذاتية (معى) عن أحمد أمين فى اتباعه منهج المؤرخ الذى يسجل ويرصد الأحداث ، دون معايشته لها من الداخل ، ومثلما فعل أحمد أمين فى تقديم سيرته بعرض الوراثة والبيئة التى نشأ فيها ، نجد شوقى ضيف يبدأ بعرض وافٍ للقرية التى نشأ فيها من حيث جمال المكان والمبانى وطبقات الشعب ومستواهم الاقتصادي وعاداتهم وتقاليدهم ، وكما جاءت سيرة أحمد أمين امتدادا لمنهجه فى الدراسات الأدبية والفكرية التى كتبها كذلك جاءت سيرة شوقى ضيف امتداداً لمنهجه فى التأليف (خاصاً فى كتبه العصر الجاهلى – العصر الإسلامى – العصر العباسى) حيث يبدأ بدراسة الحياة السياسية و الاجتماعية والدينية والفكرية ، ثم بعد ذلك يعرض للحياة الأدبية . . الخ ، وجاءت السيرة امتداداً لهذا المنهج فبدأ بدراسة مستوفاة عن قريته بجوار دمياط كان يربض مستنقع واسع يشغل أكثر من مائتى فدان ملئ بالأسماك ونبات البردى ، بأزهار النيلوفر (اللوتس) قائمة على سيقانها ليل نهار. وفى الجانب المقابل للقرية تقع بحيرة المنزلة بصياديها وشباكها . . وكان فى واجهة القرية دور كبير بعض

الشيء للأسرة الموسرة فيها ، ومن ورائها تتكدس دور متواضعة مرصوصة على جانبى أزقة ضيقة " [1] ويتحدث حديثاً مستوفياً عن حياة أهل القرية بيوتهم المتواضعة (من الطين اللازب أو الحجارة التى لا تكاد تتماسك) وفرشهم المتواضع (حصر قديمة) يعملون من الصباح الباكر ويعودون فى المساء بملابسهم المتسخة تتبعهم الماشية من الأغنام والبقر والجاموس . . إلخ . ينامون مبكراً ويستيقظون فى الفجر تقوم النساء - باكراً – بملء الجرار من الترعة ، ويتعرض لطقوسهم وعاداتهم ، المبالغة فى حالات الحزن ، وفى الأفراح وإيمانهم بالسحر ، ووجود بعض الفرق الصوفية التى تقيم الاحتفالات الدينية فى المناسبات ، وسهر الناس – أحياناً – لسماع الشاعر الذى ينشد على الربابة . . إلخ . هذه مقدمة طويلة يؤرخ فيها للقرية فى حالاتها المتعددة (الاجتماعية والاقتصادية والفكرية) ثم بعد ذلك يقف على وصف حياة أسرته ، فهو ثالث أخوته مات أخواه السابقان ، ثم رزقوا بأخت له ، وله أخت أخرى من الرضاعة ، يعيشون حياة ميسرة ، يملك أبوه بستاناً وكذلك الجد ، نشأ نشأة دينية ، وكان أبوه دارساً فى الأزهر ونال الشهادة ولكنه لم يتعين بها وتزوج من امرأة متدينة قريبة له . . الخ .

كل ذلك فى (٣٨ صفحة من ١٢٠ صفحة عدد صفحات السيرة) ثم تعرض السيرة بعد ذلك لحياته العلمية بداية من التحاقه بمدرسة القرية ، ثم المعهد الدينى بدمياط ، ثم بالمعهد الأزهرى بالمدينة نفسها ، ثم بالمدرسة التجهيزية ، ثم كلية الآداب عام ١٩٣٥ ، ثم حصولة على الماجستير عام ١٩٤٠ ، وبعدها حصوله على الدكتوراه وموضوعها (المذاهب الفنية للشعر العربى على مر العصور) . . الخ

١ - معى شوقى ضيف دار المعارف ط ٢ عام ١٩٨٥ ص ٧:٨ .

ولا نجد فى هذه السير وجودًا للعائلة ولا لأصحاب أو امراة أحبها ، سوى حياته العلمية السقيمة التى يعرض لها فى أسلوب لا نجد فيها صراعاً معيناً لنوعية المناهج وطبيعة الذين درسوا له ، فكل المناهج عنده مستساغة ، وكل المدرسين عنده مقبولون مهما اختلفت أساليبهم وأمزجتهم . . إلخ

لقد كان هم شوقى ضيف أن يعرض فى سيرته لحركة الأحزاب السياسية المتناحرة من أجل ماربها الشخصية للاستحواذ بتشكيل الوزارة . . جرياً وراء مصالحها لا حباً لمصلحة البلاد . . يبدأها برصد أول وزارة وعتها ذاكرته فى العاشرة من عمره (من مواليد ١٩١٢) ، فنعرف منه استقالة وزارة عدلى يكن عام ١٩٢٢ ، ثم تشكيل عبد الخالق ثروت وزارته فى العام نفسه . وفى العام نفسه يشكل محمد توفيق نسيم وزارة بعد استقالة وزارة ثروت ، وفى عام ١٩٢٣ يُكلف يحيى إبراهيم بتشكيل الوزارة ، وبعدها فى عام ١٩٢٤ م يشكل سعد زغلول الوزارة ويستقيل سعد ويشكل أحمد زيور من بعده الوزارة وفى عام ١٩٢٧ تأتى وزارة عبد الخالق ثروت ، وفى يونيه ١٩٢٨ يشكل مصطفى النحاس الوزارة ، وبعدها وزارة محمد محمود فى العام نفسه ، ثم عدلى يكن فى عام ١٩٢٩ ، ويعود النحاس فيشكل الوزارة عام ١٩٣٠ . ويستقيل فى العام نفسه ، ويشكل إسماعيل صدقى وزارته ، ثم وزارة عبد الفتاح يحيى عام ١٩٣٣ ، وتتعاقب الوزارت وزارة محمد توفيق نسيم عام ١٩٣٤ ، ووزارة النحاس عام ١٩٣٦ ، ومحمد محمود عام ١٩٣٩ ، وفى نفس العام يشكل على ماهر الوزارة ، وفى عام ١٩٤٠ يشكل حسن صبرى الوزارة ، ثم حسين سرى عام ١٩٤١..إلخ

هذا هو عمل المؤرخ شوقى ضيف فى سيرته أرخ لسيرته فى كل مناحي حياته وعرض للسياسة الداخلية للبلاد وتشكيل الوزرات المتعاقبة ، ورغم أنه لم يزاول نشاطاً

سياسياً مميزاً ولم ينتم إلي أى حزب الانتماء الفاعل (كعضو) كما تقول السيرة . والسؤال الذى يطرح نفسه أين صاحب السيرة - هنا – من سيرته ؟ . . . الإجابة مكان محدود جداً طالب يتابع دراسته بنجاح دون أى مؤثرات أو عقبات تقف فى وجهه ، سواء المشاكل المادية التى عانى منها الجيل السابق ، وجاءت سيرتهم الذاتية معبرة عن هذا الداء العضال أو نوعية المناهج ، فهو يشيد بالمناهج الأزهرية والمتون والشروح القديمة ، ويعتبرها النموذج الأمثل لمن أراد الإلمام بهذه العلوم . (١)

لقد جاءت سيرته على هامش الحياة السياسية ، وأن هذه الأحداث كانت القاعدة أما حياة صاحبها فهى الاستثناء . وقد رصد لحياته فى منهج تأريخى صارم حيث اللغة الحيادية الجافة ، والجمل التى تتساوى فيها المعانى مع الألفاظ لا إيجاز ، لا إيحاء ، ولا ظلال للمعانى . . إننا نقرأ أخباراً لا سيرة نابضة بالحركة والحياة ولنقف على نموذج لطريقة العرض تؤكد رؤيتنا ، يتحدث عن التحاقه بالمعهد الأزهرى بدمياط عام ١٩٢٦ م . بقوله " تحول الفتى فى أول العام الدراسى الجديد إلي معهد الزقازيق الدينى الثانوى ليكمل دراسته الأزهرية فيه ، وكانت هذه أول غربة له عن أبويه ، وأسرته وانتظم بين طلاب المعهد الجديد ونزل معهم فى مسكن بسيط (٢) . ثم يرصد لأهم حدثين مرا به هذا العام وهما نشر كتاب طه حسين فى الشعر الجاهلى ومهرجان تكريم أحمد شوقى يقول " وثارت ضد طه حسين موجه حادة من النقد العنيف قيل فى أثنائها إن الجامعة المصرية تنفق عليها الدولة ، فكيف لأستاذ الأدب العربى الذى يتناول مرتبة منها أن يعلم الطلاب فيها مثل هذا الإلحاد المنكر (٣) " أما عن تكريم شوقى فيقول " وحدث ثان فى

١ - راجع : م. نفسه ص ٦٨ ص٨٠ .
٢ - م. نفسه ص ٧٤ .
٣ - م. نفسه ص ٧٥ .

هذا العام الدراسى كان له دوى بعيد فى العالم العربى وأوساطه الأدبية هو انعقاد مهرجان كبير برياسة سعد زغلول لتكريم شوقى شاعر مصر الحديثة اشتركت فيه جميع البلاد بمندوبين من كبار أدبائها وشعرائها كى يضعوا على مفرقه – مع كبار الأدباء والشعراء فى مصر – تاج إمارته للشعر العربى الحديث " (١) . فهذا أسلوب إخبارى يكتب فى جريدة بعيداً عن عاطفة الكاتب ، حيث اللغة الحيادية الجافة ، لغة المخبر لا لغة الوجدان والأحاسيس الداخلية . يؤرخ شوقى ضيف للواقع السياسى أولاً ، ولحياته بجانبه (أقصد حياته العلمية ومراحل تعليمه حتى نال الدكتوراه تحت إشراف طه حسين) ، وعندما حاول فى النهاية أن يضفى شيئاً من أدبية النص على سيرته ، فلجأ إلي المفاجأة فى آخر حديثه ، وهي مجيء أبيه لحضور المناقشة ، جاءت المفاجأة باهتة وغير مقنعة ، فهو لم يعلم أباه بموعد المناقشة " غير أن أباه قرأ خبرًا عنه فى الصحف صباحاً فسافر إلي القاهرة تواً " (٢) .

فهذا الموقف ليس له ما يبرره ، ولقد كان يعلم – مسبقاً – رضا المشرف (طه حسين) عن رسالته بدليل السماح له بطباعة رسالته باباً باباً ، بعد قراءة الباب عليه مباشرة ، أى أن مصدر القلق من المناقشة والمنح غير موجود ، ويتعارض هذا الموقف مع ولائه لأبيه ، خاصة أنه يذكر هذا الولاء الذى تربى عليه منذ الصغر ، فقد كان يقبل يد أبيه كل صباح ؟ !! كما يقول .

– ٤ –

يصل الاتجاه التأريخى الراصد للأحداث أعلى مستوياته عند الدكتور أحمد هيكل فى سيرته (سنوات وذكريات سيرة ذاتية) حيث ينهج طريقة التدريس التى تعتمد على

---

١ - م. نفسه ص ١٢٦ .
٢ - م. نفسه ص ١٣١ .

التبويب والتقسيم ، وعرض الأحداث فى حيادية تامة ، وبلغة علمية صارمة ، تفتقد النبض والحياة ، وقد قسم مراحل حياته إلي ثمانى مراحل كالآتي :-

المرحلة الأولـــى : الطفولة والنشأة .

المرحلة الثانيـــة : المرحلة الأزهرية .

المرحلة الثالثـــة : المرحلة الجامعية .

المرحلة الرابعـــة : مرحلة البعثة .

المرحلة الخامسة : المرحلة الأكاديمية .

المرحلة السادسة : المرحلة الدبلوماسية .

المرحلة السابعـــة : المرحلة الإدارية .

المرحلة الثامنـــة : المرحلة الوزارية .

وقد رصد لحياته من مولده ١٩٢٢/٤/٤ م حتى توليته الوزارة (وزير الثقافة من ١٩٨٥ إلي ١٩٨٧) ، ولد فى الزقازيق ، ثم التحق بكتاب القرية ، ثم بالمدرسة الأهلية وتخرج منها ، ملتحقاً بالمعهد الأزهرى (فى الثالثة عشرة من عمره عام ١٩٣٥) ، ليقضى فى المعهد المرحلة الابتدائية ، ثم المرحلة الثانوية عام ١٩٤٤ م ، ثم التحق بدار العلوم وتخرج منها عام ١٩٤٨ ، ثم عين معيداً بالكلية ، وبعدها أوفد فى رحلة علمية إلي إسبانيا عام ١٩٥٠ م وفيها التحق بمعهد الدراسات الإسلامية بمدريد ليحصل على الدكتوراه فى موضوع (ابن سهيل الأشبيلى عصره وحياته وشعره) تحت إشراف جاديثا جومث فى نوفمبر عام ١٩٥٤ ، وعاد عام ١٩٥٥ للعمل مدرساً بدار العلوم ثم أستاذاً مساعداً عام ١٩٦٠ سافر إلي لندن فى رحلة علمية عامى ١٩٦٣ و١٩٦٤ ، وأعير إلي السودان من عام ١٩٦٥ إلي ١٩٦٧ . وعمل مستشاراً ثقافيا فى سفارة مصر بإسبانيا من عام ١٩٧٣ إلي ١٩٧٨م

obeikandi.com

وبعدها أصبح أستاذاً وعمل نائب رئيس جامعة القاهرة حتى عام ١٩٨٥ ثم وزيراً من عام ١٩٨٥ إلي ١٩٨٧ ، وفاز بجائزة الدولة التشجيعية ثم التقديرية ، وأشرف على كثير من البرامج الثقافية فى الإذاعة والتليفزيون ونال عضوية المجلس الأعلى للإذاعة والتليفزيون ومن الشخصيات الكبيرة التى التقى بها الملك فرانكو عام ١٩٧٥ والرئيس المصرى عام١٩٨٥ .

سيرة حافلة بالجد والعمل والنشاط ، ولكنها عرضت فى أسلوب تأريخى راصد للأحداث ، لا مصورة ولا مجسدة لمشاعر صاحبها إزاء أحداث حياته ، لقد قسم حياته إلي مراحل ، وفي كل مرحلة قسمها إلي محاور داخلية ، يسرد فيها الأحداث فى صورة جافة ميتة ، ففى المرحلة الرابعة مثلاً (مرحلة البعثة) يقسمها إلي محاور داخلية كالآتي (بداية الرحلة بين الفرحة والرهبة – ركوب الباخرة لأول مرة – مرسيليا وأول لقائى ببلد أوروبى – فى القطار والوصول إلي مدريد – البدء فى تعلم الإسبانية والاستعداد للجامعة – الاستقرار والتعلم فى الجامعة – النجاح فى الدراسات التمهيدية والتسجيل للدكتوراه – رمد العينين ولطف من الله إنجاز الرسالة ورحلة إلي فرنسا والمغرب – مناقشة الرسالة ونيل الدكتوراه بامتياز – التأثيرات النفسية للفترة الأسبانية – دور معهد مدريد وفضله – أهم التغيرات فى مصر قيام ثورة يوليو – العودة إلي الوطن – الفرحة بلقاء بعض الأهل)

هذا منهج تعليمى صرف وكأنه يقف أمام شخصية غير شخصيته يقف على مراحل حياته ويحدد محاور لكل مرحلة يشرحها لنا شرحاً ، فى أسلوب المؤرخ الراصد للأحداث ، حتى المواقف التى تثير الوجدان والمشاعر جاءت باردة ، خالية من النبض والحياة ، يسردها وكأنه يقرأ لنا خبراً فى جريدة ، ففى عودته إلي الوطن بعد خمس سنوات ، لا نجد لهفة وشوقًا لرؤية الأهل وتقبيل تراب الوطن ، ولكن الذى وجدناه خبراً فى

جريدة ، لا نجد مكاناً للفرحة ، لأن صندوق الكتب قد سقط سهواً من العمال يقول " على رصيف الميناء كان ينتظرنى أخواى وبعض الأقرباء ، ونزلت ملهوفاً فرحاً أعانق المستقبلين ، وانتظرت سعيداً متبهجاً إنزال أمتعتى وصندوقين كبيرين فيهما ما جمعته من كتب . . وكانت المفاجأة المؤلمة أن الذين أنزلوا الصندوقين قد أخطأوا ، فوقع أحد الصندوقين وانكسر ، وسقطت كتب كثيرة فى البحر . . والحق أن هذه الحاثة كانت صدمة لى ، وزاد من وقعها لى أنها كانت أول استهلال لى عند عودتى إلي بلادى " (١) .

أين حرارة مشاعر لقاء الأهل بعد خمس سنوات اغتراب ؟ أين لهفة اللقاء قبل وصول السفينة إلي الميناء ؟ أين مشاعر الأهل الذين لم يروا ابنهم منذ خمس سنوات ؟ لا وجود لكل هذا ، إنه يخبرنا أخباراً ، ولا يجعلنا نشاركه مواقفه وأحاسيسه ومشاعره ، إن الذى يصور مشاعره اتجاه وطنه وأهله ، كان يمكن له أن يصور مشاعره أثناء غرق الكتب العزيزة على صاحبها ، وما ينطبق على هذا الموقف السابق فى سرده ينطبق على كثير من المواقف التى تفجر المشاعر وتثير أعماقه ، لقد جاءت هذه المواقف باردة ميتة ، ونذكر من هذه المواقف :

١- الفتاة التى صاحبته فى الفندق مدة شهر قبل أن يخصص له ولزملائه مكان ، لقد كان جامداً فى مشاعره رغم أنه كان فى عنفوان الشباب ، وتفتح نضجه الجنسى وكل ما قاله عنها " فتاة إسبانية مهذبة تصلح لأن تكون إحدى بطلات السينما ، وقد ساعدتنا هذه الفتاة كثيراً فى أيامنا الأولى على تعلم بعض الكلمات " (٢) . أين مشاعره ؟ وأين شهوته أمام هذا الجمال ؟!!

---

١ - سنوات وذكريات د . أحمد هيكل ط الهيئة العربية المصرية العامة للكتاب عام ١٩٧٧ ص ٨٧ :٨٨ .
٢ - م. نفسه ص ٧١ .

٢- المرأة التى سكن هو وزملاؤه والتى كانت – كما قال – تعامله كأم ، أليست مشاعر الأمومة جديرة بخلق جو إنسانى جميل ، ويجعل ذكراها طيبة ، ويدفعه ذلك للعودة للبحث عنها بعدما رجع إلي إسبانيا مستشاراً ثقافياً . . حتى لو لم تكن موجودة فى هذا الوقت وفى هذا المكان أليس بيتها رمزا لطلل عزيز على صاحبه له فيه ذكريات جميلة ؟!

٣- الصديق الإسباني الذى ودعه عقب البعثة فى برشلونة (ص٨٦) رغم قسوة الجو "فقد كان اليوم ممطراً ، وظل هذا الرجل على رصيف الميناء ببدلة المطر حتى ودعنى بكل الوفاء " (١) هذا الصديق لم يفكر فى زيارته والبحث عنه عند عودته مستشاراً ثقافياً ، وكل ما ذكره عنه هذا الخبر البارد .

٤-الطبيب الإسباني الذى فحص عينه ولم يأخذ أجراً وأعطاه علاجاً كهدية أيضاً (ص٨٧)

٥- الفتاة التى تعلق بها فى إسبانيا ، وفكر فى الزواج منها ، لا نجد عاطفة متأججة أو شهوة مكبوتة تتمنى أن تفرغ فى موضعها ، فهو يسرد الخبر فى صورة باردة قائلاً " أتيح لى وأنا أدرس فى إسبانيا أن أرى فتاة إسبانية – وعرفتها عن قرب – ووجدت أنها يمكن أن تكون زوجة لى ، ولكنى عدت إلي مصر دون أن أتقدم إلي أهلها . . لعدم إمكانى الزواج وأنا طالب ، ثم لعدم رضاى عن أن أتزوج بأجنبية " (٢) . ألم يقولوا عن الحب : مع الحب والحرب كل شيء مباح . . لأن العاطفة لا تحد بحدود ، ألم يقل العقاد أنا لا أختار حين أحب ولا أحب حين أختار . . وأعتقد أننا مع القضاء والقدر حين نحب وحين نولد وحين نموت . ولكننا نجد أنفسنا أمام رجل من فولاذ . . يفكر بالعقل ويحب بالعقل ، ويكتب بالعقل . .

---

١ - م. نفسه ص ٨٦ .
٢ - م. نفسه ص ٩٨ .

٦- مواقف الحزن والجزع التى ألمت به لموت أمه وأبيه وشقيقه وعبد الناصر – يسرد هذه الأحداث كخبر قرأه فى جريدة ، لا وجود لمشاعره وأحاسيسه ، يقول عن موت أخته عام ١٩٦٧ " نعى إلي ناع شقيقتى الصغرى التى تعيش فى الزقازيق ، فحزنت لموت هذه الأخت أشد الحزن " (١) . وعن موت أبيه يقول " عاودتنى الأحزان من جديد حيث توفى والدى يوم الرابع والعشرين من شهر أبريل ١٩٦٨ ، وهكذا تكرر حادث الوفاة فى الأسرة فى أقل من عام . . ولكن الحياة لم تتوقف " (٢) . وعن موت والدته يقول " زار الموت أسرتنا مرة أخرى ، فماتت والدتى يوم الثانى عشر من شهر سبتمبر ١٩٧٠ " (٣) ويضيف إلي هذا الموقف المحزن موقف موت عبد الناصر قائلاً "وهكذا تجدد الحزن ثم تضاعف من حزن خاص إلي حزن عام ، فقد مات جمال عبد الناصر يوم الثامن والعشرين من شهر سبتمبر ١٩٧٠ ، وذلك بعد موت والدتى بنحو أسبوعين"(٤) .

وهكذا كان أحمد هيكل فى سيرته راصداً للأحداث بمنهج المؤرخ ، لا مسجلاً لعمل إبداعى يستنطق المواقف ، ويبعث فيها الروح والجمال ، والتعبير عن المشاعر الإنسانية والمواقف الإنسانية النبيلة .

---

١ - م. نفسه ص ١١٧ .
٢ - م. نفسه ص ١١٨.
٣ - م. نفسه ص ١٢٠ .
٤ - م. نفسه ص ١٢٠ .

obeikandl.com

٣- الشكل الروائى

-١-

وهو ما يعرف فى الأدب الغربى بالسيرة الذاتية الروائية

(١) *Novelized autobiography*

ويقصد به القالب الفنى الذى يزاوج فيه الكاتب فى عرض أحداث حياته (الواقعية) فى شكل روائى ، يعتمد على السرد والتصوير ، وإيجاد الترابط والاتساق بين الأحداث الفنية ، واستخدام الخيال استخداماً محدوداً فى تجسيد هذه الأحداث (الحقيقية) واللجوء إلي الحوار فى تجسيم المواقف ، والكشف عن أبعاد شخصيته وتحقيق المتعة الجمالية فى عمله الأدبى ، ناهيك عن استخدام اللغة ذات الطابع التصويرى الإيحائى الذى يساعد على تجسيد الأحداث وتصويرها ، مع حسن صياغة الأسلوب جملاً وعبارات ، والأمثلة كثيرة فى أدبنا العربى ، نذكر منها طه حسين فى (الأيام) وحنا مينا فى ثلاثيته (بقايا صور- المستنقع - القطاف) وخليل حسن خليل فى (الوسية) ومحمد شكرى فى (الخبز الحافي - الشطار) . . إلخ .

ومن البداية نفرق بين السيرة الذاتية الروائية بهذا المفهوم الذى حددناه ، وبين الرواية الفنية التى تعكس لنا جانباً أو مرحلة من مراحل حياة صاحبها - كما مر بنا - فى إشارتنا إلي تخفى بعض الروائيين فى أبطال رواياتهم مثلما فعل الحكيم فى شخصية محسن فى عودة الروح ، وفى عصفور من الشرق ونجيب محفوظ فى شخصية كمال فى الثلاثية ، والمازني فى شخصية إبراهيم الكاتب ، وأحمد الفقيه فى شخصية خليل الإمام فى الثلاثية (لا أحد فى المدينة) . . فهذه الأعمال لم يصرح أصحابها بأنهم يتناولون فيها

1 - See , shumaher : English Autobiography p.182 .

openkandil.com

سيرتهم الذاتية ، كما أنها لا تصور لنا حياتهم فى صورة متكاملة ، ولكن تعكس فترة أو مرحلة من مراحل حياتهم . وسنقف بالإيجاز على سيرتين تكشف لنا سمات هذا الشكل الفنى (أقصد الترجمة الذاتية الروائية) وهى الأيام لطه حسين وثلاثية حنا مينا .

حاول الدكتور عبد المحسن طه بدر تجنيس الأيام بهذه الصورة الفنية ، ولكنه انتهى إلي القول بأنها فى مواقف تقترب من البحث الاجتماعي ، وفى بعضها أقرب إلي الرواية (١) . ولكن رغم ذلك فالسيرة يغلب عليها فى سرد أحداث حياة صاحبها الطابع الروائى فى روعة العرض وتصوير المواقف ، واستبطان الذات ، والبوح النفسى بما يعتمل فى نفس صاحبها من أشجان وأفراح ، واستخدام الحوار والصراع الفنى الذى يعطى العمل الأدبى مذاقاً وطعماً فنياً جميلاً . . فمن البداية يتحسس الزمان والمكان الذى نشأ فيه فهو " على جهله حقيقة النور والظلمة يكاد يذكر أنه تلقى حين خرج من البيت نوراً هادئاً خفيفاً لطيفاً ، كأن الظلمة تغشى بعض حواشيه ، ثم يرجع ذلك لأنه يكاد يذكر أنه حين تلقى هذا الهواء ، وهذا الضياء لم يؤنس من حوله حركة يقظة قوية ، وإنما آنس حركة مستيقظة من نوم أو مقبلة عليه " (٢) ثم يحاول تلمس المكان الذى يكاد يكون السياج المجاور لمنزلهم هو آخر نقطة فى الكون " يذكر أن قصب هذا السياج كان مقترباً كأنما كان متلاصقاً ، فلم يكن يستطيع أن يتسلل فى ثناياه ، ويذكر أن قصب هذا السياج كان يمتد من شماله إلي حيث لا يعلم له نهاية " (٣) ، وهذا أسلوب تصويرى لمحاولة الصبى على المكان والزمان المحيط به ، يعيش هذه اللحظة من الداخل ، وفى تلمسه لمعرفة الذات يصدم بالحرمان الأسرى الذى يؤلمه كثيراً حين تدعوه أخته إلي الدخول فيأبى فتخرج

١ - راجع تطور الرواية العربية فى مصر (١٨٧٠- ١٩٣٨) د . عبد المحسن طه بدر ط دار المعارف القاهرة ١٩٧٦ ص ٣٠٨ .
٢ - الايام طه حسين ج١ ص٣
٣ - م. نفسه ص ٤ .

فتشده من ثوبه فيمتنع عليها ، فتحمله بين ذراعيها كأنه الثمامة ، وتعدو به إلي حيث تنيمه على الأرض ، وتقع رأسه على فخذ أمه ، ثم تعمد هذه إلي عينيه المظلمتين فتفتحهما الواحدة بعد الأخرى ، وتقطر فيهما سائلاً يؤذيه ، ولا يجدى عليه خيراً ، وهو يألم ولكنه لا يشكو ولا يبكى " (١) .

وهنا يطلعنا على مأساته (فقد بصره) نتيجة للجهل المتفشى فى هذا المجتمع لقد عالجوا عينه علاجاً خاطئاً ، وظل أثره مؤلماً حتى نهاية عمره ، وإلي جانب استخدامه التصوير ، يعايش الأحداث من الداخل مستبطناً ذاته ، ليبوح بآلامه وأشجانه فى نغم شجى حزين ، يمتع القارئ بأسلوبه الجميل ذى الإيقاع الموسيقى المؤثر فى النفس ، إنه لا يروى أحداثاً ولكن ينقلها حية نابضة بالحياة لنعيش معه لحظة بلحظة مع هذه الأحداث حتى ولو كان الحديث عن غيره ، كما يحدثنا عن سيدنا أثناء ذهابه ورجوعه من الكتاب مستنداً على تلميذين من تلاميذه ، يغنى فى صوت منفر ، ويقف مدندناً معجباً بصوته المنفر وقد يعجبه (الدور) فيأبط على تلميذيه اللذين يستند عليهما (٢) .

ومن أهم المواقف المؤثرة فى حياته فى بداية حياته موت أخته وموت أخيه ، وهو فى عرضه لهذين الموقفين يعرض لهما فى أسلوب تصويرى جميل ، يجسد لحظة الموت وما قبلها ويعكس لنا مشاعره وأحاسيسه تجاه هذين الموقفين ، إضافة إلي مأساته التى جاءت نتيجة لإهماله وعلاجه العلاج الخاطئ ، يصور موت أخته لإهمال الأهل لها كما أهملوه من قبل يقول " أصابه الرمد فأهمل أياماً ، ثم دعى الحلاق فعالجه علاجاً ذهب بعينه ، وعلى هذا النحو فقدت هذه الطفلة الحياة ، ظلت فاترة هامدة محمومة يوماً ويوماً ويوماً ، وهى ملقاة على فراشها فى ناحية من نواحى الدار ، تعنى بها أمها وأختها من حين إلي حين

١ - م. نفسه ص ٥.
٢ - م. نفسه ص ٢٧ .

تدفع إليها شيئاً من الغذاء . . حتى إذا جاء عصر اليوم الرابع . . وإذا الطفلة تصيح صياحاً منكراً . . والصياح يتصل ويزداد فتدع أخوات الطفلة كل شيء ويسرعن إليها . . والصياح يتصل وبشدة والطفلة ترتعد ارتعادا منكراً ، ويتقبض وجهها ويتصبب العرق عليها . . وتقدم الليل فأخذ صياح الفتاة يهدأ ، وأخذ صوتها يخفت وأخذ اضطرابها يخف . . . ثم ينقطع النفس " (١) . وقد صور موت أخيه كما ذكرنا من قبل مؤسياً مؤثراً فى النفوس وفى الجزء الثانى يصور لنا حياته فى الربع مع زملائه الدارسين ، فيعكس بعدسته لكثير من الشخصيات غير الموفقة لعدم اعتنائهم بدروسهم ، مصوراً كثيراً من عيوبهم الخلقية (بكسر الخاء وتسكين اللام) فى ضحكهم ومشيتهم وأكلهم . . الخ ، إنه يصور هذه المواقف وكأننا نعيش معهم هذه اللحظات وفى هذا المكان ، فهو كما يقول محمد سيد كيلانى "بصفة عامة يجيد تصوير المواقف المؤلمة تصويراً يترك فى نفس القارئ أثراً عميقاً حتى كأننا شاهدنا ما شاهد ، وحضرنا هذه المواقف المؤلمة ، ولمسنا كل شئ فيها ، ورأيناه رأى العين " (٢)

وهو عندما يجيد فن التصوير يستبطن ذات نفسه ، ويبوح بوحا شجيا بمشاعره وأحاسيسه فى نغم رقيق ، يطرب القلوب وتلذ له النفوس . ننظر إليه مثلاً عندما سيطر على قلبه الحب مع شعوره بالضآلة لعاهته أمام تلك العاطفة ، لأنه ليس مثل غيره له الحق فى ممارسة هذا السلوك يقول " ولكن حبه كان يستحى حتى من نفسه فينكرها وكان الفتى يخفى شعوره ذاك فى أبعد ما يمكن أن يستقر من أعماق ضميره ، ويكره أن يتحدث

١ - م. نفسه ص ٩٨:١٠٠ .
٢ - طه حسين الشاعر الكاتب محمد سيد كيلانى ط الدار القومية عام ١٩٦٣ ص ٩٣ .

به إلي نفسه ، وقد استيقن أنه لم يخلق لمثل هذا الشعور ، وإن مثل هذا الشعور لم يخلق له وأين هو من الحب؟ وأين الحب منه؟! " (١) .

فلم يعتمد طه حسين فى سيرته السرد طريقة لتقديم الأحداث ، ولكنه – كما ذكرنا – يلجأ إلي التصوير وإلي استبطان الذات وبذلك " تستمر السيرة بابها مفتوح على مصراعيه إلي الداخل لا إلي الخارج . فليست الأحداث تسرد سرداً ، وإنما هى تعكس انعكاساً ، ولا هى تجرى صياغة تقريرية وإنما هى تروى فى بناء (درامى) يجمعها رابطة داخلية من الحس " (٢) . وقد جاء إيقاع الأحداث متناسباً والبيئة التى يروى عنها فى القرية جاء الإيقاع بطيئاً متفقاً مع طبيعة القرية ، وفى الجزء الثانى أخذ إيقاع العرض يسرع بعض السرعة ، وتتعاقب الشخصيات ويبطئ العرض لبعض الشخصيات فى الربع التى لم تكن موفقة فى دراستها ، وفى الجزء الثالث يزداد إيقاع الأحداث سرعة ، لتعدد أنشطته من محاضرة إلي أخرى ، دراسة وعمل جاد لنيل درجة الدكتوراه وليتعلم الفرنسية

أما عن شخصيات السيرة ، فشخصية الصبى أو الفتى (هو البطل) وهى محور الأحداث ، والتى يدور حولها النسيج الأدبى منها ما ذكره باسمه كعبد العزيز جاويش ولطفى السيد ولتيمان ونللينو وميلونى ، وكثير من الشخصيات ذكرها بلقبها المفتش الزراعى – الشيخ – شيخ الأزهر.

وقد عاب إحسان عباس وتبعه فى ذلك يحيى عبد الدايم طه حسين فى عدم ذكره أسماء الشخصيات وأسماء الأماكن وعد ذلك نوعا من افتقاد الصراحة (٣) ، ولكن هذا لا يعد عيباً لأمرين أنه قد يكون نسى أسماء هؤلاء سواء بقصد للإحراج عندما يذكر أسماء

١ - مذكرات طه حسين – طه حسين ط دار الأدب بيروت ١٩٦٧ ص ٧٣ .
٢ - تطور الرواية العربية فى مصر د . عبد المحسن طه بدر ص ٣١٠ .
٣ - راجع فن السيرة د . إحسان عباس ص ١٤٥ والترجمة الذاتية فى الأدب العربى الحديث د . يحيى عبد الدايم ص ٤٠٤ .

هؤلاء فى مواقف لا يرضون عنها فربما يكون بعضهم كان على قيد الحياة وقد يكون عدم الذكربدون قصد (للنسيان الطبيعى) . الأمر الثانى أن الغاية من السيرة عرض حياة رجل واجه كثيراً من تعنت المجتمع لثلاثيته (الفقر والجهل والمرض) وما هذه الشخصيات ليست مقصودة بذاتها بقدر تصوير واقع محيط بصاحبها ، فماذا نستفيد من معرفة اسم الشيخ إلي قال له : انصرف يا أعمى ، أو اسم الشيخ الذى قال له : إنك وقح ، أو معرفة اسم الشيخ الذى كان يردد لازمة (اخص على بلدى) أو معرفة أسماء شيوخ الطريقة فهذه الشخصيات ما هى إلا رموز للتخلف والجهل اللذين أثرا على حياته ، كذلك ما قيمة معرفتنا لأسماء زملائه فى الربع فى تصويرهم تصويراً كاريكاتيريا وربما يكون كثير منهم كان على قيد الحياة عندما كتب هذه الأيام (عام ١٩٢٩) ، وقد يدخله ذلك فى مواقف محرجة .

أما الصراع فى السيرة فقد أخذ طابع السلبية والاعتراض ، اعتراض على أخلاقيات وتصرفات معينة ، تبرم من طريقة الشيخ فى الكتاب وخداع العريف له ، ضيق من إهمال والديه فى بعض الأوقات له ، ضيق من الجهل الذى أودى بحياة أخته ثم بحياة أخيه ، ومن قبل تسبب فى فقدان بصره فكانت مأساته طيلة حياته ، بيد أن ثورية الكاتب ازدادت حدتها فى الجزء الثانى وأبرز هذه المواقف ثورته على أبيه وأساتذته فى الأزهر ، وقد تجلى اعتراضه على والده لقراءاته دلائل الخيرات ، ورفضه اللجوء إلي الأولياء ثم كانت غضبته على أساتذته من شيوخ الأزهر ، حتى رد عليه أحدهم : إن طول اللسان لا يمحو حقاً ولا يثبت باطلاً .

والسيرة فى جملتها صرخة من أعماق نفس عانت من الفقر والجهل والمرض وكأن صاحبها يريد أن يضع أمامنا صورة صادقة أمام العقول لتعى ، والقلوب لتشعر بما لاقاه

صاحبها ، فتفكر فى التغيير ، لا التمرد الثورى فى الروايات الفنية ، لذا لا نطالب الكاتب أن يكون تمرده ثورياً مروعاً ، إن وظيفة الفنان أن يدق ناقوس الخطر، وليست وظيفته أن يحمل سلاحاً يحارب به ، وهذا ما أراده طه حسين ولذا فلا غرابة أن يقول كمال قلته " طه حسين ناقد لمجتمعه أكثر مما هو ناقد لنفسه ، ومحلل لبيئته وبلده أكثر من مؤرخاً لخلجات النفس " (١) .

وقد اتصف أسلوب طه حسين بسمات الأسلوب الأدبى فى روعة الألفاظ وقدرتها الإيحائية ونغماتها الموسيقية ، ليجعل من عمله سيمفونية جميلة تلذ لها القلوب ، وتطرب لها النفوس لتحدث المتعة الجمالية المنوطة من العمل الأدبى ، وقد رويت الأحداث بضمير الغائب (الصبى - الفتى) وفى ظنى أن مسألة استخدام الضمير يرجع إلي مقدرة الكاتب نفسه فى استخدام الضمير المناسب لعمله ذلك لأنه كان يقول د . عبد الملك مرتاض استخدام الضمير مسألة جمالية أو شكلية قبل كل شئ (٢)، ولم يستخدم ضمير المتكلم ، إلا مرتين عندما تحدث لابنته فى نهاية الجزء الأول ولابنه فى نهاية الجزء الثانى، وقد أبان د . عبد المحسن طه بدر إيجابيات استخدام ضمير الغائب فى قوله لقد "استخدم فى عرضه لكتابه ضمير الغائب ، وهو ما يخدم أغراض المؤلف بصورة أفضل ، فلو أن الكاتب التزم بأسلوب المتكلم لكان لزاماً عليه أن يعرض لصوره ومواقفه من زاوية الصبى وحده . . وبالإضافة إلي أن ضمير الغائب يعطيه الفرصة للفصل بين وجوده ، وبين هذه الذكريات المرة التى يريد أن يؤكد انتصاره عليها والتى لا يريد لا بنيه ولا لأبناء الناس جميعاً أن يتعرضوا لها " (٣)

---

١ - طه حسين وأثر الثقافة الفرنسية فى أدبه كمال قلته ط دار المعارف عام ١٩٧٣ ص ١٩١
٢ - راجع نظرية الرواية(بحث فى تقنيات السرد) د . عبد الملك مرتاض – عالم المعرفة الكويت عام ١٩٩٨ ص٩٤
٣ - تطور الرواية العربية الحديثة فى مصر (١٨٧٠ : ١٩٣٨) دار المعارف القاهرة ١٩٧٦ص(٣٠٨)

وقد نقد د . يحيى عبد الدايم طه حسين لاستخدامه ضمير الغائب ورأى أنه من الأفضل لأن يستخدم أسلوب المتكلم لأنه أكثر صدقاً ، ورأى لهذا السبب ولعدم تحديد أسماء الشخصيات والأماكن . . كل ذلك أدى إلي إبعاد هذا العمل من السيرة الذاتية لتصبح – عنده – أقرب إلي الرواية ، لأن ذلك – كما رأى – مخل بطبيعة السيرة . (١)

وفى ظنى أن الدكتور يحيى عبد الدايم متحامل على طه حسين فاتهمه بعدم الصراحة (ص٣٩٠) واتهمه بالسخط والتعالي والتشامخ (ص ٤١١) واتهمه بأن الصراع لم يعكس له حياة درامية لسيرة صاحبها (ص٤١٥) وأن هذه السيرة ليست مثل سيرة الوالد والولد لادموند جوس (ص٤٣٤) وكأن الوالد والولد هى النموذج الأمثل للسيرة الذاتية الروائية وخلافها لا يعد سيرة ذاتية روائية ، وهذا تحامل مقيت لدارسى الأدب وناقده ، إننا ننظر إلي الأيام – وغيرها من الأعمال الفنية – كعمل فنى متكامل ، لانفتته بطريقة ناقمة تحط من قيمة هذا العمل ، إن توافر السمات الفنية لهذا العمل كسيرة ذاتية روائية جعلتها " تؤثر فى نفس قارئه تأثيراً بعيداً يجذبه جذباً إلي متابعته ومشاركته مشاركة وجدانية (٢) لذا أخذت هذه السيرة مكانه متميزة بين السير الذاتية فرأى إحسان عباس أن للأيام فى السيرة الذاتية الحديثة " مكانة لا تطال إليها أى سيرة ذاتية أخرى فى أدبنا العربى ، وذلك لتلك الطريقة البارعة فى القصص والأسلوب الجميل ، والعاطفة الكامنة فى ثناياه المستعلنه أحياناً . . وتلك اللمسات الفنية فى رسم لبعض الصور الكاملة للأشخاص ، والقدرة على السخرية اللاذعة فى ثوب جاد حتى تظهر وكأنها غير مقصودة(٣) " . وقد أدرك الغربيون قيمة هذا العمل ، فنقلها المستشرق كراتشفوسكى إلي

١ - راجع الترجمة الذاتية فى الأدب العربى الحديث د . يحيى عبد الدايم ص ٤٢٢ وما بعدها .
٢ - الترجمة الشخصية د . شوقى ضيف ص ١١٥ .
٣ - فن السيرة د . إحسان عباس ص ١٤٢ .

الروسية ، والبروفسور باكستون إلي الإنجليزية ، وراؤول فاغوى إلي الفرنسية ، وتسينغ يانين - إلي الصينية ، ولخص الدكتور إسماعيل أدهم أكثر فصوله إلي الألمانية والتركية فيكون هذا أول كتاب أو قصة تصويرية نقلت إلي أكثر من لغة من لغات الشرق والغرب(١) .

-٢-

من السير التى صاغها صاحبها فى قالب روائى ثلاثية حنا مينا (بقايا صور - المستنقع - القطاف) وفيها يعرض صاحبها لحياته حتى الخامسة عشرة من عمره، فتروى لنا (بقايا صور) أول ما اختزنته الذاكرة حتى الثامنة من عمره ، والمستنقع لفترة تقرب من ثمانى سنوات (حتي الخامسة عشرة من عمره) والقطاف لصيف وخريف عام ١٩٣٩ (وهو في الخامسة عشرة من عمره) .

وقد جاءت الثلاثية فى نسق روائى يتصف بالبناء المتسق ، والتصوير للأحداث والمواقف ، واستبطان الذات ، واستخدام الحوار الدرامى الذى يطور الأحداث ، ويكشف عن مواقف الشخصيات كل ذلك عمل على إيجاد المتعة الجمالية التى ينفعل بها القارئ ويشارك صاحبها فى أناته وخلجاته ، ورحلته المؤلمة من أجل البقاء وإثبات الذات ، وربما يكون صاحبها قد شعر بغلبة النسيج الروائى على حقائق سيرته الذاتية فاعترف بأنها ترجمة ذاتية وغير ذاتية فى آن واحد ، وأن اليافع الذى حكى المؤلف سيرته هو بدوره نموذج أدبى(٢) ، وأدركت ذلك الدكتورة يمنى العيد فقالت : كأن الثلاثية أمثولة لرواية عربية بطلها المؤلف نفسه فى حكاية ملحمة بؤسه ، وبالتالي رواية تعيد الاعتبار إلي العامل الذاتى ، إلي التجربة ، إلي المعيش المحلى لتضعه موضع المرجعى الخاص لرواية واقعية

١ - راجع : مع طه حسين سامى الكيالى دار المعارف عام ١٩٧٣ ص٥٦ .
٢ - راجع هواجس فى التجربة الروائية حنا مينا ط دار الآداب لبنان عام ١٩٨٨ ص٨ و ص ١٣ .

عربية غير هجينة . . وتستطرد قائلة : يتوقف المؤلف بحكاية سيرته عند سن الخامسة عشر ليتابع الحكاية بالوقوف بوصفه راوياً خلف أبطال متعملقين ، أو شخوص روائية رامزة لكن تخيل بشكل أو بأخر على حكاية السيرة الذاتية ، أو على تجربة صاحبها . (١)

والسيرة تروى لرحلة كفاح مضنية لطفولة بائسة ، تجوب الافاق والبلاد المتعددة من أجل لقمة العيش ، إنها مأساة أسرة ضائعة ، لا مأوى لها ، ولا رزق يكفيها ، يلخص الكاتب هذه الرحلة المضنية فى هذا الاستبطان الداخلى لمشاعره وآلامه فى قوله " لماذا يارب كتبت على أن أبقى فى هجرة موصولة ؟ من اللاذقية إلي السويدية ، ومنها إلي الأكبر وقرة أغاش و إسكندرونة ، وفى كل مدينة أو قرية نقضى سنوات ، ثم يحملنا الوالد كالزوادة الفارغة فى عنقه ، ويمشى وعلى جوانب الطريق فى التيه الكبير تتشرد العائلة يضيع أفرادها ، كذلك ضاعت أختى البكر " ومات صبيان وبنت ، وصارت الأم إلي الخدمة فى بيوت الناس ، وتبعها أختاي ، وارتحل الوالد خائباً ، وأقام خائباً أيضاً ، فكأن الخيبة نجمه الذى لا يريد أن يغور ، حتى عرفنا من جراء ذلك الفقر والمرض والجوع والذل وحمدت الله بعد كل شئ أن صار لنا بيت فى إسكندرونة بسقف من القرميد الأحمر عرضناه للبيع . . فلم يتقدم أحد لشرائه – فعمدنا – إلي تكسير قرميده ليلاً وإلي تخريب حيطانه . (٢)

أسرة بلا مأوى حتى منزلهم الذى كان فى اللاذقية أصبح طللاً ، اللهم إلا قول أمه له : (هنا ولدت يا والدى) وبعد ذلك كتب عليهم الترحال من اللاذقية إلي السويدية إلي الأكبر وقرة أغاش (فى بقايا صور) وإلي إسكندرونة ثم إلي اللاذقية (فى المستنقع)

---

١ - راجع السيرة الذاتية الروائية والوظيفة المزدوجة (دراسة فى ثلاثية حنا مينا) د . يمنى العيد . مجلة فصول – المجلد ١٥ العدد الرابع عام ١٩٩٧ ص ١٥ .

٢ - القطاف حنا مينا ط دار الآداب بيروت ط ٢ عام ١٩٩٠ ص٩ : ١٠

وعندما بدأوا يشعرون بدفء المأوى فى منزل متواضع ، جاء الأمر بترحيلهم لانتقال لواء إسكندرونة إلي السلطات التركية ، فقام بهدم هذا البيت ، لقد عملت أمه وأختاه فى الخدمة عند الأثرياء ، أما أبوه فرجل عالة على الأسرة ينتقل من عمل إلي عمل دون استقرار فى عمل ما ، مع خسارته فى كل عمل يقوم به . كل ما يجيده فى الحياة السكر حتى يبول فى سرواله . . ، أما الكاتب فهو طفل ضائع وعندما أدرك وجوده عمل فى أكثر من مهنة (وضيعة) فى المرفأ ، أجيراً فى دكان لتأجير الدراجات ، ثم أجيراً فى دكان حلاق . . سيرة بهذا الزخم الدرامى من الشقاء والمعاناة يسردها الكاتب فى قالب روائى تدور فى محاور ثلاثة كالآتي :

١- أم تستسلم لسلطة الرب والغيب والأب .

٢- والد يستسلم لسلطة جسده وغرائزه .

٣- وطفل يعانى من خوفه ، ولا يعرف كيف يقاوم ذل الجوع ومشاعر العار من سلوك أبيه فى سكره ، وفى عدم مبالاته فى الحياة .

إن الحيز الذى يشغله الكاتب فى الثلاثية ضئيل جداً ، وإذا كان أكبر تمركز لوجوده فى الثلاثية فترة دراسته ، فهذه الفترة لا تأخذ مساحة كبيرة ، لأنها محدودة الفترة الزمنية ، (فلم يحصل إلا على الشهادة الابتدائية ثلاث سنوات فى المدرسة الأرثوذكسية وسنتان فى المدرسة الرشيدية ، إضافة إلي الفقر المدقع قد قتل جمال هذه المرحلة) ، وهذا ما سنعرضه له في المبحث الخامس ، لقد طغى الجانب الروائي علي عرضه لسيرة حياته

وقد أجاد الكاتب فى تصوير بؤس هذا الطفل منذ نعومة أظفاره ، فها هو فى المدرسة نراه يعيش غريباً وسط زملائه وسط هذا المبنى الفخم للكنيسة وصورها الخلابة المروعة للكهنة ، ولأصحاب الأنجيل الأربعة . حتى مع زملائه شعر بضعته لفقره – ثيابه

البالية ، وصندله الممزق ، وأمه تأخذ الصدقة من الكنيسة . وتتباهى به أمام النساء ، رغم أن ذلك كان يقتله من الداخل ، فمن أول لحظة يدخل المدرسة لا نرى طفلاً يندهش بمنظر الكنيسة المبهرة ، بل نراه حزيناً مهموماً ، شاعراً بغربته ، وهو جالس على القبر الرخامى المواجه للمدرسة كما يقول " ها أنا فى المدرسة ، جالس على ضريح رخامى مستطيل . . لا أدرى سبباً له ، ربما كنت أرتاح وسط الهدوء المرين على المكان ، وربما كان جو العزلة وجلال الموت الذى استشعره ، وتلك الكلمات اليونانية المحفورة عليه تلائم روحى الغريبة"(١)

الفقر بأنيابه الجارحة يطارده فى كل لحظات حياته ، من أول يوم فى الدراسة حاولت الأم استدرار عطف المدير ، حتى يعفيه من رسوم المدرسة (٢٥ قرش) يصف هذا المشهد وصفاً دقيقاً " وكعادتها التى ستتكرر مئات المرات . . والتى سأذوب خجلاً منها مئات المرات أيضاً ، قصت على المدير حكاية حياتنا وفقرنا ، وصادقت امرأة خالي على كل ما قالته أمى ، وازدادت وهى تشير إلينا قائلة (إنهم لا يشبعون اللقمة) فقال المدير بلا مبالاة ، وبلهجة لا ود فيها ، متوجها بالكلام إلي أمى : ولماذا لا تعلمينه صنعة يستفيد منها إذن ؟! "(٢) .

ويشعر بالقهر بعدها ، عندما يمنع من حضور صلاة الأحد ، ومن المشى فى جنازة الأغنياء – لرثاثة ملبسه ، ويشعر بالمهانة عندما لم يستطع أن يشارك فى رحلة إلي أنطاكية لأنه لا يستطيع أن يدفع اشتراك الرحلة (أربعة قروش) . .

هذه هى حياة الطفل فى أجمل سنين عمره ، بداية التعلم ورعشة الاكتشاف للحروف والكتابة رغم قول المدرسة التى تحبه وتحنو عليه : " ستكون عظيماً فى

١ - المستقع : حنا مينا ط دار الاداب بيروت ط ٥ عام ١٩٩١ ص ٣٢
٢ - م. نفسه ص ٣٧ .

المستقبل"[١] لا نجد الطفل سعيداً فى مدرسة ، يفتقد الألفة والحب من حوله للفارق الاجتماعي بينه وبين زملائه ، وعندما يرجع إلي البيت يفتقد حنان الأم التى تذهب كل يوم للخدمة فى بيوت السادة ، وقد سبقتها أختاه من قبل ، أما أبوه فأخذ على عاتقه تبديد المال المتاح للأسرة بشرب الخمر ، وعدم استقراره فى مهنة من المهن ، خاسراً فى كل مهنة يزاولها . . وقد أطال فى وصفه لمواقف شرب أبيه ، وظهوره فى مظهر غير لائق فى ثلاثيته ، من هذه المشاهد قوله " وهنا (إسكندرونة) أيضاً كما فى السويدية والأكبر كان يسكر فى أى قرية يصلها ، وكان يعود إلي البيت وهو سكران ، وكثيراً ما سقط فى الطريق العام ، وتطوح بما يحمل من "صدر" فيه بقية مشبك ، أوفيه بعض الحبوب التى بادل عليها، وتسقط سلة البيض الذي يجمعه ويتكسر ما فيها ، ويظل ملقى على قارعة الطريق حتى تسرق أشياؤه ، ويفيق فى اليوم التالي ، فلا يجد شيئاً ، أو يراه من يعرفه فيحاول إنهاضه وإيصاله إلي البيت ، كان يأتي مجروراً معربداً ، ونسمع صوته من بعيد ، فنخرج من البيت ، أمى وأختى وأنا ، ونحاول إدخاله وهو يمتنع ويشتم ويحاول ضرب الوالدة وضربنا ، وعندئذٍ نبكى ويتراكض الجيران ، ويحملونه بالقوة إلي الفراش ، وهو ينهض ويهجم على النافذة الخلفية للبيت محاولاً إلقاء نفسه من النافذة ، ولقد رأيتهم مرة يضربونه ، آه يا إلهي كم كان صعباً على ومؤلماً ومهيناً أن أرى والدى يضرب "[٢]

تتكرر هذه المواقف المخزية فى كل مكان يحل به يبحث عن الكحول والخمر..حتى فى أحلك اللحظات عند رجوعهم من إسكندرونة ونومهم فى المقابر، طلب من زوجة أخيه زجاجة العرق التى كانت موجودة عندها بحجة قول السيد المسيح (قليل من الخمر يفرح قلب الإنسان) ليشرب ويغيب عن الوعى ، وفى الليل يختلس النائمين ليتقابل مع غندف

١ - م. نفسه ص ٩٧ .
٢ - م. نفسه ص ١٠٤ : ١٠٥ .

لقاء فاجراً [١] وعندما يذهبون لنبر الزيتون فى مزرعة (ح) يبحث عن مكان يتردد عليه من وقت لآخر، ولعل أصعب المواقف التى مر بها الكاتب من جراء شرب أبيه معايرة زملائه التلاميذ له فى المدرسة ومناداتهم له بالقول : أنت يا ابن السكران [٢]، أما المواقف الأكثر إحراجاً عندما ذهب معه إلي قرية (قرق خان) فى ضواحى إسكندرونة لالتقاط القمح والتجارة فى البادية ، مر على مقهى وشرب منه حتى غاب عن وعيه يصف هذا الموقف " حاولت أن أسند والدى كيلا يسقط ، إلا أنه سرعان ما تهاوى على الرصيف فجربت أن أنهضه وهو يضحك ، واجتمع علينا الناس ، من رواد المقهى وعالجوه فوقف على قدميه ، مستنداً على الجدار، طالباً العودة إلي المقهى ، ولما دفعته بيدى الصغيرتين . . صفعنى وهو لا يدرى " [٣] ففى إسكندرونة كانت أمه تقوم بهذه المهمة ، أما هو هنا فيصعب عليه ترويض أبيه وهو فى هذا السن .

لقد اتصفت الرواية بالوصف التصويرى للأحداث ، فها هو يصف مشاهد كثيرة لسكر أبيه وعربدته إضافة إلي وصفه للمستنقع والقاطنين فيه ، ليصور حياة العوز والبؤس التى عاشها وهو ومن فى مستواه الإجتماعى المعدم ، البيوت الوضيعة سقفوها بالقصب وطيونها بالصلصال المجبول بالتبن ، أو بنوع من القش (ورق طويل منبسط ومقعر يشبه الحلفاء) ، ومن هم أيسر حالاً يسقفونه بالقرميد الأحمر. لا يسكن هذا الحى إلا الفقراء الجياع العرايا الذين يعملون فى تنظيفات المدينة ، وفى العتالة ، وفى الميناء والذين لا عمل لهم ، والمقامرين والسكيرين واللصوص ، والذين يمارسون كل أصناف الرذائل ، ويأكلون كل نفايات المدينة . [٤]

---

١ - راجع القطاف حنا مينا ط دار الاداب ط٢ ١٩٩٠ ص ٤١ و ٢٤ .
٢ - المستنقع حنا مينا ص ١٠٩ .
٣ - م. نفسه ص ٣٨٧ .
٤ - م. نفسه ص ٥٩ .

وفى الشتاء تفيض المياه فى المستنقع ، فيحفرون خنادق حول بيوتهم ، تتجمع فيها المياه التى تخلفها الأمطار ،ولذا عملوا فى كل كوخ أرضية خشبية مرتفعة عن مستوى الأرض ، وتحت هذه الأرض تعيش الحشرات من الجرذان والفئران والضفادع والأفاعى وبجوار هذه الأكواخ كانت ترمى قمامة المدينة ، التى كانت تسرح فيه خنازير إسكندر التى يحدثنا – من فقره – كان يفتش هو وأقرانه – فى هذه القاذورات ، ربما يجد شيئاً صالحاً ينفعه . . إلخ .

ومثلما أطال فى الوصف التصويرى للمستنقع ، أطال - أيضاً - فى وصف حدائق الزيتون والعمل بها أثناء جنى الزيتون فى مزرعة (ح) ليبرز لنا التناقض الشاسع بين الفقراء المعدمين وهم كثرة لا يمتلكون شيئا ، وبين الأغنياء (القلة) الذين يملكون الأراضي الشاسعة وبدلاً من عطفهم على الفقراء يتمادون فى ظلمهم ، وبخس حقوقهم . . إلخ .

إلي جانب الوصف التصويرى نجد المنولوج الداخلى الذى يعرى النفس من الداخل ، خاصة فى المواقف الدرامية المؤلمة ، كشعوره بتصدعه من الداخل لمجئ أمه إلي الكنيسة التى تتبع المدرسة لها ، لتأخذ المؤونة (نصف كيلو طحين وربع سكر و٢٠٠ جرام سمن) لأن الوالد كان مسجلاً فى قائمة الفقراء الذين يوزع عليهم الطحين والسمن والسكر فى عيدى الميلاد والفصح " كنت أحبس نفسى فى الصف . . كيلا أخرج فترانى أمى وتكلمنى أو تعانقنى أمام المعلمات والتلاميذ " [(١)] وكان يجلس على القبر اليونانى ويتأمل لماذا نحن فقراء إلي هذا الحد ؟ لماذا فى الدنيا بؤس بهذا المقدار ؟ وما سبب أن بعض أولاد جيراننا لا تخدم أمها فى بيوت الناس ، ولا يأتين فى الأعياد ليقفن فى طابور

١ - م. نفسه ص ٩١ .

التوزيع؟ وهل سبب ذلك أننا خطأ كما تقول أمى ؟ وكيف نخطئ نحن أكثر من غيرنا ؟ ولماذا لا يعمل أبى كسائر الآباء . . (١) .

ومن المواقف التى استخدم فيها المونولوج الداخلى الذى يستبطن ذاته حسرته وتألمه لافتقاده الجرأة مثل أخته ، التى كانت أكثر منه صلابة وجرأة يقول عنها هى "ثائرة بطبعها ولاشئ غير ذلك ، تستطيع أن تقاتل فى سبيل الحق ، ولكنها عاجزة عن شرحه للآخرين ، ما ينقصها كان نصف صبرى ، وما ينقصنى نصف شجاعتها ، إنها لا تهاب ، لا تيأس ، لا تخاف الحياة ، دون أن تدرى لماذا ؟ . . وكثيراً ما فكرت على هذا النحو هى شجاعة لأنها معافاة . لماذا يا رب جعلت أختى فى هذا الجسم الكامل ، وجعلتنى فى هذا الجسم العليل ؟ . . عملت خادماً منذ الصغر ، وحرمت من المدرسة .. وعلى هذا فقد كانت على درجة عالية من النباهة وسرعة البديهة " (٢) .

ومن استبطانه لذاته تفكيره في علاقته برئيفة (التى أحبها فى حقول الزيتون) ولكن ظروفه حالت دون الزواج منها ، ليقف موقفاً محيراً بين عاطفته وظروفه الاجتماعية يقول " لم يسبق لى أن أحببت ، ولكننى انتهيت ليلة أمس ، إلي أن الحب لم يخلق لأمثالي قد يكون هذا حلماً لأمثالي ، تنقصه الموضوعية ، يخلط بين العاطفة والواقع ، لكننى أنا لا أستطيع فى مثل حالي أن أتقبل عاطفة هى بمثابة الصدق ، رئيفة تحتاج إلي رجل ، إلي زوج ، إلي حياة عائلية ، ومن الخير لى ولها أيضاً ، أن يبتعد أحدنا عن الآخر ، أن ينسى وأن يفكر فى اللقمة وحدها " (٣)

---

١ - م. نفسه ص ٩٢ .
٢ - القطاف ص ٢٧١ : ٢٧٢ .
٣ - م. نفسه ص ٢٨٥.

ومن تقنيات الشكل الروائى إلي جانب التصوير والاستبطان الداخلى لتعرية النفس استخدام الحوار الذى يطور الأحداث ، ويكشف عن مواقف الشخصيات ، وقد استخدم الحوار بإسهاب فى (القطاف) حوارات الأب مع الشوباصى ، وحواره مع عبد الله الناطور (أبو رئيفة) وحواره مع أخته ، وحواره مع عمه ، وكثير من هذه الحوارات تدور حول ملمحين من ملامح شخصيته (تمرده السلمى على وضعه الاجتماعى – كشف ضعفه النفسى وعدم القدرة على المواجهة) ومن الحوار الذى يعكس تمرده على وضعه الاجتماعى ما دار بينه وبين عبد الله كالآتي بدأ بقوله :

- أنا لا أظن أن الفقر من الله ، أو الاحتلال الفرنسي منه – هذه أشياء صارت نتيجة فعل الإنسان .
- حلو . أنت فلسفون (فليسوف) إذن ؟
- لست فليسوف ، وهل يحتاج ما نحن فيه إلي فلسفة .
- لا أدرى لكننى لم أسمع مثل هذا من قبل .
- (قاطعته) اعترض على مقاطعته ماذا ؟ اذا كان اعتراضاً على الأغنياء على الخوجات والإقطاعيين فأنا معترض .
- هذا اعتراض حكمة الله .
- أستغفر الله ، بل هو اعتراض على تصرف الحكومة والأسياد . .إلخ (١)

ومن الحوار الذى يعكس فقدان القدرة على المواجهة ، ما دار بينه وبين أخته بعد دفاع أبيه عن بدور قالت له :

- ما رأيك فيما فعلنا ؟

---

١ - م. نفسه ص ٢٠٢.

- جيد لولا أنه .
- ألا تستطيع العيش دون " لولا " هذه ؟
- ولكننا .
- قد نطرد أليس كذلك ؟
- على الأقل سنحاسب . .
- دع عنك هذا . حين تقدم على شئ ، لا تبال سلفاً بما ينجم عنه .
- كن شجاعاً وتحمل التبعات .
- فكرت بما قالت ، خطر لى تبرير خوفى فقلت : لو لم نكن فقراء . .
- أضافت : حتى مع الفقر كن شجاعاً (١) . .إلخ

لقد كان الحوار فاعلاً فى إجلاء طلاسم نفسه ، كما كان الاستبطان الداخلى لمشاعره كاشفاً لمشاعره وانفعالاته ، وهذا يعمل على إضفاء العنصر الدرامى للعمل الأدبي فيجعله يمور بالحركة والنبض والحياة .

لقد اتخذت الرواية فى بنائها الفنى البناء الهرمى الذى يقوم على تسلسل الأحداث ، وإن كان يؤخذ على هذا البناء الترهل للإطالة والاستطراد فى الوصف والحوار وفى تفاصيل عرضه للأحداث .

وقد رسم شخصياته رسماً دقيقاً فأمه امرأة طيبة القلب تؤمن إيماناً عن طبع وسجية بالمسيح والكنيسة وسلطة الرب ، وتبرر لأي ابتلاء يحل بهم بما يقترفونه من آثام وهى امرأة متسامحة تحملت زوجها ، وأحسنت حتى إلي من أساء إليها (سامحت غندف التى فعلت الفاحشة مع زوجها) أما أبوه فهو رجل غير مبال ، يعيش لحظته ، لا

---

١ - م٠ نفسه ص ١٨٩ : ١٩٠ ٠

يهمه إلا مزاجه والكيف ، يحمل فى أعماقه شعوراً بكبر مقامه وعظمة أفعاله . . وأخته فتاة قوية الشخصية ، حازمة فى أمرها تملك بديهة تجعلها جاهزة للرد على كل من يتعرض لها . . وهناك شخصيات كثيرة ذكرها وحدد ملامحها منها الشوباصى (أبوأسكندر) وفايز الشعلة واسبيرو الأعور ، والفلفاط الأصغر والفلفاط الأكبر ، وعبده حسنى..الخ .

والصراع فى السيرة صراع سلمى ، وإن أحذ المواجهة بين العمال والشرطة فى حديقة المستنقع إلا أنه سرعان ما انتهى بالحسم الدموى . . وكانت زوبعة فى فنجان لتباين القوى بين الطرفين (شعب أعزل – وحكومة تملك السلاح) أما صراع المؤلف مع الواقع فاتخذ موقف المشاهد للأحداث ، لا المشارك ، ومرجع ذلك صغر سنه ، وعندما شب عن الطوق كانت ظروفه الاجتماعية قد هدمت أشياء كثيرة فى أعماقه . . ولكن الصراع الداخلى كان فتيلاً متقداً أعطى العمل الحيوية ، فبدأ الصراع بشعوره بالمهانة فى المدرسة للفارق الاجتماعى مع زملائه ، وشب هذا الشعور عندما أدرك الحياة ، وجاء فايز الشعلة بأفكاره الثورية ، ولكن الواقع المهيض دمر هذه الأحلام ، فماتت فى طفولتها ، وتوالي هذا الصراع فى تساؤلات عن أسباب الفقر والغنى ولماذا خلقهم الله فقراء وغيرهم أغنياء ؟ وانتهى بعدم الإجابة مثله مثل الصراع الذى انتابه لتعلقه برئيقة . . إلخ .

والسيرة عمل إبداعى ذو قيمة فنية عالية ، صيغت فى قالب روائى ممتع بأحداثه وبمقدرة صاحبها على ملء الفراغات الفنية ، ليجعل من سيرته تحفة أدبية جميلة .